أنفاسي المسروقة

فيروز طه

أنفاسي المسروقه
فيروز طه
تدقيق لغوي :- عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف :- عبير محمد
رقم الايداع 2018/419118
ترقيم دولي 978-977-6594-51-9

دار فصله للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
FB.com/Faslapub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي نوفمبر 2018

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصله للنشر والتوزيع
إن أي تصوير أو إعادة طابعه أو نشر بشكل ورقي أو إليكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتياً بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

أنفاسي المسروقه

الروايه مقتبسه عن قصه حقيقية , تم تغيير أسماء الشخصيات
حفاظاًعلى الخصوصيه

فيروز طه

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

إلى كل امرأة كافحت وتكافح لأجل أطفالها وكبريائها،
لكل امرأة تعيش في بقاع الوطن العربي،
إلى كل من قامت بدور الأب والأم،
الكون بدونك لا شيء،
استمري.

شكر خاص للأستاذ المعلم/ القذافي محمد.

إلى ذلك الرجل الذي سكنت روحه بداخلي،
رحل بجسده تاركًا خلفه وجعًا يفتت الجبال،
إلى من رحل تاركًا غصةً تقف في قلبي لا أقدر على التخلص منها،
الذي رحل وتركني أقف بمفردي في منتصف عاصفة،
رحلت وتركتني ألد طفلتنا الثانية بمفردي!
كيف رحلت قبل أن ترى طفلتنا؟
كنا قد اتفقنا على أن ننجب ذكرًا العام المقبل.
لم أخلفت وعدك لي!
أين أنت؟
أنا وحيدة جدًا هنا بدونك،
العالم بشع وسيء، كل شيء يؤلمني،
هل قبرك مريح؟
سرقوا أنفاسك،
سرقوا نبض قلبك،
ابتسامتك الفاتنة،
سرقوك مني،
سرقوا أيامنا القادمة معًا،
قتلوك!
داعش قتلتك!
أتسمعني!
أشتاقك جدًا.
زرني في أحلامي، أريد أن أراك مرةً أخرى.
أشتاق إلى سماع صوت دقات قلبك.
أرنو إلى لفح أنفاسك،

ذكرياتنا مداد لحياتي.
أتوق لكل ثانية قضيتها معك،
أتمنى عودتها المستحيلة.

******

اسمي كما هو مدون في بطاقتي المدنية نور،
أبلغ من العمر ستة وعشرين ربيعًا، وهذا الذي عاشه جسدي أما روحي فقد عاشت ما يقارب السنوات السبعة فقط.
أعيش مع ابنتيَّ في بيت استأجرته بالقرب من بيت عائلتي وعائلة زوجي،
اخترته في المنتصف؛ لأُرضي جميع الأطراف.
وإن كان الأمر بيدي لوأدت ابنتيَّ وتجرعت الموت؛ لأكون إلى جواره، إنني حقًا أفتقد ذلك الجوار إلا أنه محرم قتل النفس في ديانتي.

******

حكايتي، بل حكايتنا،
سنحكيها أنا وهو.
كانت الساعة الثامنة والنصف صباح يوم الثلاثاء الثامن عشر من آذار عام ألفين وثلاثة، قفزت من سريري مسرعة إلى الحمام أريد أن أسبق التوأمين علي وعمر وأختيَّ لارا ولجين، فإن دخلت إحدى الفتاتين إلى الحمام فهذا يعني أنها ستقضي ما لا يقل عن ساعتين بداخله.
وصلت إلى باب الحمام وما كدت أفتحه حتى سمعت صوت لارا قادمة نحوي دخلتُ مسرعة وأغلقتُ الباب خلفي.
ستصل الآن، وتبدأ بالقرع على الباب ولن أفتحه، سأجعلها تنتظر قليلًا مثلما تفعل معي دائمًا.
أمضيت نحو عشر دقائق، وحين خرجت وجدت مجموعة من الوجوه الغاضبة أمامي، تدافع التوأمان، لكن لارا سبقتهما بالدخول.

أسرعت إلى غرفتي، وفتحت خزانة ملابسي، وأخرجت فستاني الأزرق الذي قامت أمي بخياطته من أجلي، توسطه شريط من الستان باللون الأزرق الغامق، أمي تعرف أنني أحب هذا اللون جدًا.

فساتين الدمى لونها أزرق، والأغلفة التي أضعها على الكتب المدرسية الخاصة بي وأقلامي جميعها باللون ذاته.

ارتديت فستاني، ووقفت أمام المرآة أحاول تمشيط شعري الطويل ووضعت شرائط ملونة وخرجت بعد أن رتبت سريري، ووقفت أمام المرآة عدة دقائق لأتأكد أنني أرتدي ملابسي بشكل جميل متناسق.

شعري يبدو رائعًا، خرجت من غرفتي أحاول المشي في وسط تلك الزهرات التي كانت منقوشة بشكل رائع على السجادة التي قد اشتراها لنا أبي العام الماضي.

بدوت كالفراشة التي تطير بين الزهرات، سعيدة بذلك المنظر.

****

وجدت عمر لا يزال يتلوى ويقف أمام الحمام ينتظر خروج من في الداخل.

مسكين أخبرته كثيرًا أن عليه أن يكون سريعًا ويسبقهم.

نزلت السلم مسرعة، وجدت أختيَّ تعدان مع أمي طاولة الإفطار، بينما وجدت نفسي أرتفع عاليةً، هناك يدان كبيرتان ترفعاني إلى السقف.

أكاد ألمسه، أصبحت طويلة.

إنه أبي، كان يستمع إلى قهقهتي وأنا مرتفعة، وضعني على كتفه، وخرجنا لإحضار الصحيفة من الحديقة، التقطها أبي وأنا ما زلت على كتفه أستمتع بالطول الذي أصبحت عليه.

وهواء الصباح البارد يداعب خصلات شعري.

حين دخلنا إلى البيت كانت أمي قد أنهت إعداد الطاولة، جلسنا جميعًا، أبي في المقدمة، على يمينه أمي، وأنا على يساره، أما لارا ولجين فهما بجانبي، وعمر وعلي بجانب أمي.
بدأ أبي يتحدث مع لجين حول موضوع زيادة مصروفها بما أنها الكبيرة وقد أصبحت في الثامنة عشرة من عمرها، فهي تريد مالاً أكثر منا جميعًا، إنها تسرف في إنفاقه على شراء مساحيق التجميل وأدوات تصفيف الشعر،
وحول موضوع شراء تلفاز في البيت أبي كان يعارض هذه الفكرة تمامًا يقول: "إن التلفاز لا فائدة منه"، حاولت أمي إقناعه؛ لكي نعرف أخبار العالم وليتسنى لنا وقت لمتابعة الرسوم المتحركة.
كان رأي أبي كما هو لم يتغير؛ أبي صعب المراس.
لارا لا تهتم بأمور كمساحيق التجميل مثل لجين، لارا التي ستبدأ عامها الخامس عشر الشهر المقبل تعشق القراءة والكتب والروايات.
تمضي وقتها في مكتبة أبي تقرأ ما تقع عيناها عليه.
عمر وعلي لم يتجاوزا عامهما العاشر يمضيان وقتهما في الرياضة، علي يعشق السباحة وعمر يحب كرة القدم.
وأنا ما زلت في الثالثة عشرة، أبدو أصغر من ذلك بسبب قصر قامتي، أحب اللعب بدُمَاي ذات الفساتين الزرقاء تخبرني أمي أنني قد كبرت على اللعب بالدمى، لكنني لا أقتنع
أحب التلوين والرسم جدًا، وجدران غرفتي مزينة بلوحاتي التي طغى عليها اللون الأزرق كعادتي في كل ما يحيط بي.

****

أنهينا الإفطار، وانسحب أبي إلى غرفة المعيشة ليبدأ قراءة الجريدة، أما التوأمان فقد خرجا بسرعة إلى الحديقة، ولجين ولارا ساعدتا أمي في تنظيف الطاولة.

انسحبت إلى غرفتي بعد أن غسلت يديَّ، وأخذت دميتي، حيث بدأت بتمشيط شعرها وربطته بشريط ملون مشابه لشريط شعري.
رفعت بصري إلى الساعة المعلقة في منتصف لوحاتي الزرقاء إنها التاسعة وخمسون دقيقة.
بعد غد سيكون يوم الخميس، سنذهب مساءً إلى بيت جدي، سألتقي ابنة عمي نادين التي تبلغ من العمر اثنا عشر عامًا.
أحب الذهاب إلى بيت جدي، فهو دائمًا مزدحم بأولاد وبنات أعمامي والكل يضحك ويجري، والكل سعيد بوجودنا هناك، بالأخص أمي، فهي منسجمة مع زوجات أعمامي الثلاثة، حيث تتركني ألعب مثلما أريد.
مضت ساعة، سمعت صوت خزانة الثياب تفتح في غرفة أبي عرفت أنه سيذهب إلى الدكان.
تركت دميتي والشرائط الملونة وقفزت مسرعة، فتحت باب غرفتي واتجهت إلى أبي أنتظره عند باب غرفته، لينهي ارتداء ملابسه.
أبي يعمل حلاقًا، لقد ورث هذه المهنة عن جدي، ويحب مزاولتها جدًا، يمضي النهار بأكمله في الدكان، ويعود في المساء وقد اشترى لي ولإخوتي الحلوى.
خرج أبي ليرتدي حذاءه، تعلقت في رقبته، طلبت منه أن يأخذني معه، وأكثرت من الإلحاح في ذلك، لكنه لم يوافق.
تركني بعد أن خادعني بوجود نملة صغيرة على فستاني، فما أن التفت إليه حتى وجدته قد رحل وأغلق الباب وراءه.
عدت باكية بعينين مغرورقتين بالدموع.
"ماما لقد ذهب أبي ولم يأخذني معه".
قلتها وأنا أمسح الدموع عن عيني.
– "أنتِ تفعلين هذا كل يوم، ولا تذهبين معه، توقفي عن الإلحاح، وتعالي لتساعديني في إعداد الطعام".

لا أحب مساعدة أمي في المطبخ، ذلك المطبخ ممل ومضجر جدًا.
"سأذهب يا أمي إلى الحمام أولًا".
افتعلتها حجة للغياب عنها وعن ذلك الممل المضجر المسمى بالمطبخ، غبت عنها قليلًا حتى نسيت أمري في مساعدتها، أمضيت ساعتين في اللعب حتى سمعت صوت باب الحديقة يفتح بسرعة ويغلق، من سيأتي في وقت كهذا؟ لا بد أنها جارتنا كثيرة الكلام، إنها تأتي إلى بيتنا؛ لتستمع إلى الأخبار من أمي ثم تقوم بنشرها لمن تعرفه، وكذلك حين تأتي فهي لا تكف عن الحديث أبدًا، ما أن تطأ قدماها عتبة الباب حتى تبدأ في الكلام عن جميع النساء في الحي، فلا يسلم من لسانها أحد.
حين علمت أمي بأمرها أصبحت لا تحكي لها شيئًا، وتحاول أن تكون معاملتها معها جافة، علها تحس وتشعر أن أمي لا ترغب بوجود النمامين في بيتنا، وهي رائدة في ذلك.
نظرت من سور السلم إلى الأسفل لكنني لم أجد جارتنا.
كان أبي.
وجهه يبدو شاحبًا، دخل ليجلس في غرفة المعيشة.
رؤية أبي بهذه الحال مرعبة، ما أن مرت ثوانٍ حتى وجدت أمي أمامه تحاول استخراج الكلام منه، لكنه لم يجبها بل قام مسرعًا إلى الحديقة.
- "عمر، علي، هيا إلى الداخل بسرعة"، أشار بيده إلى الداخل وكان يبدو حازمًا جدًا، دخل الصبيان، وأغلق أبي الباب خلفه، وصعد إلى غرفته وتبعته أمي، مرا سويًا من أمامي، حاولت أن أظهر له كم أنا مستاءة بوجه عبوس وحزين لكنه لم يعرني أي انتباه، دخل إلى الغرفة، ومن ثَمَّ أمي وأغلقا الباب.
مرت حوالي ثلاثين دقيقة حتى خرجت أمي من الغرفة مصدومة،

ودخلت الحمام، فتحت صنبور المياه، ورشت بعض الماء على وجهها.
حاولت فهم ما يعتلي ملامحها، لكنها كانت أكثر تعقيدًا من أن أفهمه.
سأختصر لكم الأمر:
"إنها الحرب، ستنشب غدًا".
****

بعد مرور أربع سنوات.
فتحت عينيَّ الناعستين، حاولت قدر الإمكان أن أبتهج في هذا الصباح، لكن الأمر كان شاقًا، لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى.
هذا أمر كفيل بجعلي أختنق حد الموت، أتجرع غصص ألمه.
أبلغ الآن سبع عشر عامًا، لقد احتفلت بعيد ميلادي منذ أسبوع.
أبي رفض تمامًا أن أذهب إلى المدرسة هذه السنة، إنها آخر سنة لي في المدرسة من المفترض أن التحق بالجامعة العام القادم.
تبًا لها، حرمت الكثيرين من الحلم، الأمل، حرمت الكثيرين من الحياة.
قتلت الطموح في قلوب أجيال،
أمَضَّت أرواحًا كانت تتوق إلى الغد،
فتحت تلك الحرب جرحًا غائرًا،
وفجيعة كنا في غنى عنها، وأي مصيبة أعظم منها.
كل شيء يهون إلا تلك الأفعى التي نفثت سمومها بين أبناء وطني،
إنها الطائفية!
كارثة الأرض والتاريخ والحضارة، بل إنها كارثة الواقع والمستقبل.

مختصر الحديث،
طائفتان اقتسمتا وطني، وكل طائفة تقتل الأخرى، تريد محوها، إبادتها.
تحت شعار العقيدة، وبوقود من الكراهية.

قتل الكثير من الشباب والأطفال الذين لا ذنب لهم سوى أنهم من طائفة مختلفة.
اضطر أبي إلى بيع المنزل والرحيل منه في وقت سريع جدًا، فلقد بدا الحي وقد سيطرت عليه طائفة معينة،
لا يجوز لنا العيش في بيتنا وأرضنا، أصبحنا مقسّمين في بلدات معينة وأماكن معينة، وأماكن يحظر علينا دخولها، أو الاقتراب منها، وإلا فالقتل مصير من يدنو من تلك الأماكن.
كانوا يكسرون الأبواب، ويدخلون البيوت عنوة ليقتلوا من بداخلها، ثم ترمى الجثث أمام المنزل؛ لتكون عبرة لمن يحاول البقاء في الحي وهو لا ينتمي إلى طائفة بعينها.
ألم أقل لكم إنها أفعى؟
ألم أقل إننا نذوق من ورائها طعم الموت؟
ألم تفتح في كل بيت جرحًا بل جراحًا غائرة؟
حتى الزمن لن تندمل جراحه.
أوَ تعلمون أنها أسوأ من الحرب؟
في الحرب كان العدو يقتلنا، أما الآن فنحن نقتل بعضنا البعض.
لا ندري أيُّنا قابيل، وأينا المغلوب هابيل.
هذا ما زرعته الحرب اللعينة فينا.
وذاك حصادها،
حصادٌ كان سقياه دمًا،
وغذاؤه أشلاءً.

تبًا وألف تبٍّ لك أيتها اللعينة.
الساقطة أشرف من تلك الفتنة.

نحن الآن نعيش في منزل صغير في حي غريب عن الحي الذي كبرت فيه لكنه حي مشابه لطائفتنا.
لارا ولجين تزوجتا العام الماضي.
انتقلت لجين للعيش مع زوجها في إحدى الدول العربية المجاورة.
أما لارا فقد حصل زوجها على تأشيرة هجرة لأوروبا، وأخذها معه.
شتاتٌ وتيهٌ يهون إزاءه شتاتُ بني صهيون.
تفرق الجمع وضاقت الأرض على من فيها، وما فيها.
فلم يبق أمام الكثيرين إلا أمرين أحلاهما علقم:
إما المخاطرة بالبقاء،
وإما أن نموت ونحن أحياء.
حين تنفصل أجسادنا عن أرضنا وتضطر إلى اللجوء لذلك اللعين المسمى بالاغتراب.
أستيقظ كل صباح لا توجد بي طاقة لمواجهة اليوم، تفرقنا أنا وأختاي،
حتى أبي وأمي.
أشعر وكأن ثمة فراغ حدث بينهما، تفككنا. كانت أمي تردد دائمًا أن تتزوج كل من لارا ولجين في منازل قريبة من منزلنا، حيث نخرج في عطلة نهاية الأسبوع إلى الحدائق، نتنزه، نشعر بجمال الحياة، بدبيب الأمل، لكن لا شيء من ذلك حدث.
أما التوأمان عمر وعلي، فأصبح حالهما حالاً، أبي يخاف عليهما جدًا من الذهاب إلى المدرسة، وطلب منهما تأجيل هذه السنة،

اسم كل منهما ينتمي إلى طائفة بذاتها، الأمر مريب ومربك.
كانت أمي تمنعهما من اللعب مع الأولاد في الحي حتى لا يتعرضا للمضايقات أو يعتقد أحد أننا من طائفة مختلفة، فيعتدي على أخي بالقتل، لم يعد عليٌّ يمارس السباحة، وهجر عمر كرة القدم، أصبحا مراهقين مكتئبين لا يعلمان ما يخبئ لهما المستقبل.
أليس من الأجدر والأصوب –بحسب ذلك الواقع– أن ندعوها:
أرض التيه؟
أم ندعوها أرض اللا أمل؟
أميل للثانية، على الأقل حتى هذه اللحظة.

****

استيقظت في الصباح أعاني من ألم شديد في أسناني لا أستطيع أن أمضغ الطعام، إنه التسوس اللعين، أكثرت من تناول الحلوى التي تخفف من حدة اكتئابي، أو تزيده، لا أعلم، المهم أني أحبها.
طلبت مني أمي الانتهاء من الإفطار سريعًا؛ للشروع في إعداد طعام الغداء، ثم ترتيب المنزل وبعدها نذهب سويًا إلى طبيب الأسنان.

******

_ "غيث، غيث".
_ "أمي، غيث لا يستيقظ".
_ "أسناني تؤلمني يا ماما أخبريه أن يأتي حالاً".
غالبًا لا أحد يستيقظ بهذه الطريقة، لكنها سارة.
من يسلم من صوتها الذي يخترق الجدران؟

أنا غيث، أبلغ من العمر سبعًا وعشرين ربيعًا، رحل عنا أبي منذ أربع سنوات ذهب إلى الحرب، ولم يعد.
أمي ما زالت تنتظره.
في بعض الأوقات كنت أمر بجانب غرفتها فجرًا، أسمعها تتحدث معه تحكي له كل ما حدث من تفاصيل اليوم كله، إنها على هذه الحال منذ رحيله.
وكأنها تجتر ذكرياته طعامًا لحياتها المفقودة.
للذكريات جدوى عند من لا أمل له.
لدي أخ يدعى ضرغام يكبرني بعامين، إنه متزوج منذ سنة، لقد هاجر هو وزوجته إلى إحدى الدول الأوروبية، لكنه لا يشعر بالراحة ويريد العودة.
على عكس أخي باسم الذي يود الهجرة بشدة وترك هذا البلد،
باسم يصغرني بأربع سنوات، يدرس الهندسة.
ضرغام وباسم يجسدان حيرة شعب،
ما بين الرغبة في الرحيل،
والأمل في العودة مساكين نحن.
لا نزال نكتوي بنارها،
ولا تزال تنفث سمومها.
ولا تزال تلك الملعونة قائمة، وذلك ميراثها.
****

أما سارة الصغيرة المدللة فما زالت في المدرسة الثانوية، حاولت كثيرًا أن أجعلها تؤجل هذه السنة، لكن محاولاتي باءت بالفشل، فهي مدللة جدًا.
أبي –رحمه الله– كان يدللها، ولا يرفض لها طلبًا، عجزت أن أجعلها تمضي هذه السنة في المنزل.
الطائفية شديدة، مهلكة، القتل أضحى هيِّنًا عند بعضهم، وما

أطلبه منها ما هو إلا خوف عليها، لكنها كانت تنهي الكلام معي وتقول:
"أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة".
ذهبت مع سارة إلى طبيب الأسنان، كانت قد كسرت إحدى قواطعها وهي تتناول البندق، حاولت قضم حبة البندق دون أن تكسر قشرتها الصلبة.
ارتديت ملابسي وأخذت مفاتيح السيارة، وجدت سارة بوجهٍ غاضب عابس ينتظرني أمام السيارة،
ما أن دخلنا العيادة حتى وجدتها مزدحمة جدًا.
_ "أوه سارة، ما هذا الازدحام منذ الصباح؟"
– "إنه ليس الصباح، إنها الثانية ظهرًا، أنت كسول، وتستيقظ متأخرًا".
كانت المقاعد جميعها محجوزة، اضطررت إلى الوقوف حتى فرغ كرسي جلست سارة، بينما بقيت عند الباب أنظر إليها حتى يأتي دورنا.
بينما سرحت بخيالي، سيارتي تحتاج إلى أن أغسلها، فهي متسخة جدًا.
توقف نظري وعقلي وفؤادي أمام فتاة دخلت العيادة مع سيدة تبدو وكأنها أمها، كانت السيدة كبيرة في السن، وتمسك ابنتها بيدها، أومأت لسارة برأسي كي تترك الكرسي للسيدة، لتجلس عليه.
ما أن جلست السيدة حتى رفعت تلك الفاتنة عينيها السوداوين إليَّ ثم إلى سارة، وشكرتها.
إلهي! لقد غرقت في عينيها.
أي جمال قد صور في عينيها.
واسعتان كعينيّ غزال.

وكأن سواد الليل ونجومه اللامعة قد صُبوا في عينيها.
سبحان الخلاق! كيف جعل جمال الكون في عينيها؟!
كانت هاتان العينان دنيا مختلفة، دنيا بكل ما تحمله الكلمة من معان.
فيهما تدرك معنى النقاء.
تتزاحم الخواطر في القلب حين تلتقي بهما عينان أخرتان.
تختلج الصدور، تنطلق الآهات بصيحات مترددة في أعمق الأعماق،
أعمق أعماق القلب، لكن بلا صوت.
ألم أقل إنهما دنيا خاصة بكل تفاصيلها.
وجنتاها متوردتان، الدم يضخ فيهما، أما شفتاها فقد عجزت عن الكلام عنهما، جذبني سحرها، بل امتلكتني بكل تفاصيلها.
رويدك أيها القلب ما كل هذا، ألم تر من قبل جمالاً؟
سأرد بالنيابه عنك.
لم يكن لمعنى كلمة الجمال معنى حتى رأيتها.
لقد زادت على الجمال جمالاً.
انتبهت سارة إلى أنني أحملق في وجه الفتاة كثيرًا، وكزتني بذراعها لأنتبه،
بينما كانت تلك الفاتنة تمسك بيد أمها ويبدو أنها تتألم من أسنانها.
إنها صغيرة الحجم، ربما إن وقفت بجانبي فلن يلاحظها أحد،
عيناها سوداوان، يغرق فيهما من يطيل النظر إليهما، بشرتها بيضاء.
توقفت عن النظر إليها وخرجت ناحية الباب، تركت سارة تقف بمفردها، شعرت بالعطش ووقعت عيناي على متجر صغير أسرعت إليه، واشتريت زجاجة مياه وعدت إلى سارة.

حاولت قدر المستطاع إبعاد عينيّ عنها، لكنها كانت أجمل من أن تُقاوَم.
العيادة بداخلها أكثر من طبيب، خرجت الممرضة من إحدى الغرف بعد مرور ساعة ونصف من الانتظار، ونادت باسم سارة، فاتجهنا سويًا إلى الطبيب حاولت أن أنظر خلفي، لكنني شعرت أن الأمر سيكون مخجلًا، طأطأت رأسي إلى الأسفل، ودخلت مع سارة عند الطبيب، بينما تفكيري تجمد هناك، عند تلك الفاتنة التي كنت أدعو الله أن أراها عندما أخرج، وألَّا تكون قد رحلت.

****

أنهيت أنا وأمي إعداد طعام الغداء مبكرًا وقمنا بترتيب المنزل، وخرجنا سويًا أشارت أمي لسيارة أجرة؛ لتقلنا، ووصلنا متأخرتين عن موعدنا بسبب الازدحام.
حين دخلنا كانت أمي تتكئ على يدي بسبب آلام قدمها، لم نجد أي كرسي شاغر، العيادة كانت مزدحمة جدًا.
كان هناك شاب يقف بجانب فتاة جالسة على كرسي، أومأ إليها بترك الكرسي لأمي، انتابني الخجل، لمن سأقدم الشكر الآن؟
نظرت إليه ثم عدت ببصري إلى الفتاة، شكرتها، وجلست أمي.
كان الجو في العيادة حارًا، والعيادة مزدحمة.
لا أعلم ما الذي جعل حرارتي ترتفع، أهي حرارة الجو؟ أم الحرارة التي تنبعث من ذاك الشاب الضخم؟
إنه طويل جدًا، أعتقد أنني سأكون كالقزم إن وقفت بجانبه.
إلهي! هل يوجد سرير يناسب طوله؟!
ظلت عيناه تنظر إليَّ، وبدا الأمر مريبًا، كانت هناك مرآة في العيادة، تعكس صورته وهو ينظر إليَّ، تجنبت النظر إليه، لكنني كنت كلما رفعت بصري إلى المرآة وجدت عينيه تنظر إليَّ، حتى

أتت الرحمة أخيرًا.
خرجت الممرضة، ونادت باسم الفتاة التي تركت لأمي الكرسي لتجلس، دخل الضخم معها غرفة الطبيب، أما أنا فقد شعرت وكأن هناك ريحًا باردة صفعت وجهي حين رحل، وبقوة.
اهدئي، تمالكي شغفك أيتها المشاعر.
تمهل أيها القلب.
أهذا ما يسمونه الحب؟
أوقعت فيه بهذه السهولة؟
هل مُلِكْتُ بتلك السرعة؟
أي عبث هذا؟
إنها مجرد لحظة عابرة.
لا لم تكن كذلك.
كانت لحظة تساوي حياة، حياة كاملة.
كانت الحرارة تنبعث منه هو، لا من ازدحام العيادة، أو ارتفاع حرارة الجو.
لم تمر سوى دقائق معدودة، حتى خرجت ممرضة أخرى من الغرفة المقابلة؛ لتنادي اسمي، دخلت أنا وأمي، وأغلقت الممرضة الباب، بينما توقف عقلي عند ذلك الضخم، أو توقف قلبي، لا أدري!
خرجت من عند الطبيب بعد أن قام بوضع حشوة مؤقتة في ذلك الضرس الموجوع، وحجزت موعدًا آخر بعد أسبوع؛ لاستبدال الحشوة المؤقتة بأخرى دائمة.
فتحت الباب وجلت ببصري في العيادة، كنت أتوقع رؤية ذلك الضخم مرة أخرى قبل رحيلي، أعتقد أنه رحل.
خرجنا خارج العيادة أنا وأمي فرأيته يحجب نور الشمس عن جزء كبير من الرصيف.

كانت أمي تستند عليَّ في المشي، لاحظت الفتاة أن أمي متعبة، وتمشي بصعوبة تقدمت نحوي أنا وأمي، وعرضت علينا بلطف شديد أن يقلنا أخوها بسيارته للمنزل، عارضت أمي الفكرة تمامًا. شكرتها بينما أشرت بيدي لسيارة أجرة؛ لنعود إلى المنزل.

****

خرجت بعد أن انتهى الطبيب مع سارة، أخذ قالبًا لشكل أسنانها، وشكَّل لها معجونًا أبيض على السن المكسورة لاستكمال شكلها، ثم وجه إليها ضوءًا أزرق، فأصبحت صلبة وكأن السن لم تكسر، طلب منها ألاَّ تقضم بها الطعام، إنها تجميلية فقط لحين وضع السن الأخرى التي ستقوم بتركيبها الأسبوع المقبل.

حين خرجنا من غرفة الطبيب توجهت سارة إلى الممرضة لتحجز موعدًا للأسبوع المقبل، بينما كنت أفتش بعينيَّ عن تلك الفاتنة ولم أجدها،

أعتقد أنها قد رحلت.

اتجهنا نحو السيارة وكنت أبحث عن مفاتيحي لا أعلم في أي جيب وضعتها، وبينما كنت أفتش جيوبي وقع بصري على أختي التي كانت تعرض على الفاتنة وأمها أن نقلّهما بسيارتنا إلى حيث يريدان.

عندها ازدادت ضربات قلبي، وقفت متجمدًا داعيًا الله أن تقبل دعوة سارة لها، لكنها رفضت بلطف شديد.

أتوسل إليكِ.

أتوسل إليكِ يا خالة.

أتوسل بموجات قلبي.

لا أستطيع التوسل بلساني.

اقبلي.

امنحيني شيئًا يعطيني أملاً، أملاً حقيقيًا يستحق أن أعيش له تلك الحياة البغيضة.
حينها أشارت بيدها إلى سيارة أجرة استقلتها واختفت هي ووالدتها.
عدت إلى المنزل أندب حظي، كان من الممكن أن أتعرف عليها، بل كان بإمكاني أن أجعل سارة تتحدث معها طوال فترة الانتظار.
كيف سأراها مرة أخرى؟!

****

دخلت المنزل بعد يوم متعب عند طبيب الأسنان، طعم المخدر لا يزال في فمي، يجعلني أنفر من تناول الطعام، خلدت إلى النوم وتركت أمي بمفردها؛ لتجهز طاولة الطعام بمساعدة التوأمين، أما أنا فكنت أتوقع أن أضع رأسي على الوسادة لأغفو، لكن عكس هذا ما حدث، بقيت أفكر في ذلك الضخم.
إنه وسيم، عيناه بنيتان وشعره أسود كثيف بشرته سمراء بعض الشيء.
وكأن ذلك اللون الحنطي يخبر عن رجولة صاحبه.
جذاب هو بكل تفاصيله، مهما صغرت.
وبالنسبة لي، إنها تفاصيل رجل.
رجل حقيقي.
فارس لقلبي وروحي، وددت لو اختطفني، وغمر أعماقي.
أخته لا تشبهه كثيرًا أنفها طويل قليلًا، بينما هو كانت ملامحه متناسقة، وسيم، نعم، بالفعل هو وسيم جدًا، لم يزح بصره عني منذ أن دخلت، أعتقد أنه معجب بي.
قفزت من سريري واتجهت إلى المرآة ونظرت إلى بشرتي، إنها بيضاء ووجنتاي متوردتان على غير العادة، ربما هذا بسبب

التفكير فيه.
عدت إلى سريري، سأحاول النوم، ألم أسناني سبب لي صداعًا، لكنني مكثت أفكر في ذلك الضخم حتى غلبني النعاس وغفوت.
بعد أسبوع كنت أرتدي ثيابي لأذهب أنا وأمي لطبيب الأسنان.
كنت قد تناسيت أمر ذلك الطويل، أو بالأحرى حاولت ذلك، وفشلت.
دخلت أنا وأمي العيادة، وصعقت.
حقًا شعرت بالصعقة، وكأن تيارًا كهربيًا قد شحن كل عواطفي، فلقد رأيته.
حين رأيته جالسًا بجانب أخته يقلب في إحدى المجلات، كان قلبي يخفق بشدة، أكاد أسمع صوت ضربات قلبي، ويداي تتعرقان، أما قدماي فكنت أجرهما نحو الكرسي جرًا؛ لأجلس.
اقتربت أنا وأمي وجلست على مقربة منه، لكنه لم ينتبه، كان مشغولًا مع أخته والمجلة، فكرت في السعال للفت انتباهه، لكنه لم يفلح، كان شديد التركيز مع أخته، انتبهت إلى ضحكته، إنها رائعة أسنانه بيضاء مرتبة، ابتسامته ساحرة بالفعل، ما الذي يمكنني فعله لأجعله ينظر إليَّ، حاولت الحديث مع أمي علَّه يسمع صوتي ويلتفت إليَّ، لكن الأمر لم ينجح أيضًا
شعرت أمي بالملل الشديد، وطلبت مني أن أحضر لها مجلة تقتل بها ذلك الملل، تهللت ملامحي، كان الأمر مبهجًا جدًا بالنسبة إليَّ، سأقترب من الطاولة القريبة منه، وألتقط مجلة.
بالفعل سوف يراني.
****
كنت جالسًا مع سارة نقرأ بعض النكات في المجلات التي كنت أسلي بها نفسي، واقرأ النكات القديمة علَّها تضحكني قليلًا، وقد أفلحت في ذلك حتى أنهيت ما فيها، طلبت مني سارة أن أحضر

مجلتين غيرهما، وقفت لأذهب إلى الطاولة،
تجمدت قدماي.
إنها هنا، تلك الفاتنة.
إنها فرصتي وقد سنحت لي، عليَّ التقدم نحوها والحديث معها بأي شكل.
اقتربت ناحيتها كانت تقلب في المجلات، تبدو كالحائرة، أيُّها تختار؟ تحركت نحوها، ومددت يديَّ ناحيتها حاملًا المجلات التي كنت أقرؤها مع سارة، دون أن أنطق بحرف.
رفعت بصرها نحوي باستغراب، كان تصرفي أبله بعض الشيء ولا معنى منه، هكذا يُخيل لغيري، أما بالنسبة لي فكانت فرصة، وسنحت.
– "هذه المجلات لطيفة لقد قرأتها للتو".
نظرت إليّ باستغراب، تركت المجلات والتفَّت ومشت نحو أمها، وجلست دون أن تنظر إليَّ، عدت إلى سارة دون أيَّة مجلات أخرى، أشعر كأن هناك صفعة على وجهي لم كل هذا الغرور؟!
لقد حاولت أن أكون لطيفًا.
– "سارة، عليكِ أن تساعديني اليوم".
– "فيم؟ تلك الفتاة؟"
– "نعم، حاولي التعرف عليها، افعلي أي شيء".
– "ماذا سأستفيد؟" قالتها سارة تداعبني بخبث وعلى وجهها ابتسامة ماكرة.
– "ماذا؟ سارة، لا تبدأي الآن، أنا لا أمزح، إنه أمرٌ مصيري".
– "حسنًا لن أفعل شيئًا"، تستمر في إغاظتي، يا لتلك الأخت!
– "سارة سوف أعطيك المبلغ الذي طلبتِه مني".
– "وماذا بعد؟"
– "سأعلمك قيادة السيارة، وسأزيد مصروفك الشهري".

– "مممم، حسنًا"، مستمرة في مزاحها الماكر.
اقتربت سارة، منها كان بجانبها كرسي شاغر جلست وبدأت بالحديث.
بعد عدة دقائق وجدتهما منسجمتين في الحديث جدًا، بينما اقتربت أمها منهما وبدأن بالثرثرة، على عادة النساء.
كنت مبتهجًا جدًا، قلبي يخفق بشدة، انصب تركيزي كله –على غير إرادة– نحو تفاصيلها.
ضحكتها.
أصابعها صغيرة طفولية.
قدماها صغيرتان.
ملابسها فضفاضة لكن من الواضح أنها نحيلة.
كانت تهز قدميها بتوتر.
خرجت تلك الممرضة، ونادت باسم نور.
توقفَت عن الحديث مع أختي، ووقفت هي وأمها، صافحتها واتجهت نحو غرفة الطبيب.
إذن هي تدعى نور، وأي نور، ملاك نوراني، هكذا رأيتها.
كانت سارة متجهة نحوي قاطعها نداء ممرضة أخرى باسمها، اتجهنا سويًا إلى غرفة الطبيب الآخر.
بعد أن انتهى طبيب سارة كنت لا أطيق الانتظار طوال الوقت كانت قدماي تهتزان بتوتر، أريد أن أعرف ما الذي تحدثتا فيه، خرجنا من عند الطبيب لم أكد أسألها عما تحدثتا فيه حتى وجدتها أمامي هي وأمها تخرجان من العيادة.
أسرعت سارة ناحيتهما وسمعتها تعرض عليهما أن أقلهما للمنزل بسيارتي.
كدت أطير فرحًا وأدعو أن توافق هي وأمها هذه المرة.
لم أستطع أن أتقبل الأمر، سارة ونور وأمها يتجهن نحوي، أنا

أتعرق جدًا، قدماي لا تستطيعان حملي، أشعر بالحرارة تنبعث من جسدي.
– "غيث، هذه نور وأمها، من فضلك سوف تقوم بتوصيلهما بالسيارة معي".
– "أوه، أهلًا شرفت بمعرفتك خالة"، هكذا وجهت الحديث للأم.
فتحت كل منهن بابًا من أبواب السيارة، سارة بجانب مقعد السائق، والسيدة خلف سارة، أما نور فلقد جلست خلفي.
سألتهما عن العنوان فأخبرتني السيدة به، وكان قريبًا جدًا.
بقيت صامتًا للحظة أحاول التفكير في طريق بعيد لأستغل وجودهما معي، وأنعم بقربها لأطول وقت ممكن.
للأسف، لم يخطر في بالي أي طريق سوى ذلك الطريق التقليدي.
ما أن أشعلت محرك السيارة حتى هتفت سارة:
– "غيث، أنا عطشى، أريد عصير خوخ".
– "حسنًا، أمرك مطاع أميرتي الجميلة".
التفتُّ إلى السيدة:
– "خالة، ماذا تشربين؟"
– "لا يا بني، لا تتعب نفسك، لا أشعر بالعطش، شكرًا لذوقك وكرمك".
– "هيا يا خالة، لا تخجليني أرجوكِ".
– "أشكرك يا بني لا داعٍ فعلًا".
التفت نحوها –نحو ملاكي– لكنني وجهت بصري نحو الأسفل:
– "وأنتِ آنستي، ماذا تشربين؟"
خرج منها صوت خافت خجل:
– "شكرًا، لا داعٍ لذلك".
ترجلت من السيارة متجهًا نحو البقالة، اشتريت زجاجة مياه، ولسارة عصير خوخ، ومثله لي وللسيدة ولنور

عدت مقدمًا العصير إليهن.
– "لم يكن هنالك داعٍ يا ولدي، أشكرك".
– "على الرحب خالة، ذلك شرف لي".
تناولته من يدي وقدمت لنور العصير، لكنها أخذته وظلت صامتة خجلى.
بدأنا الطريق صامتين في أول عدة دقائق، لكن سارة لم تترك الأمر كذلك،
بدأت بالحديث مع نور وأمها عن الدراسة والبرامج التلفزيونية، كنت أحاول الاستماع إلى حديث نور والتركيز في صوتها الملائكي.
حين وصلنا منزلهم قالت سارة:
– "خالتي، فضلاً أيمكنني الدخول إلى المرحاض؟"
– "بالطبع بنيتي".
المنزل ليس بكبير، بوابة بيضاء صغيرة، خلفها مرآب يسع سيارة واحدة، على جانبي المرآب حديقة صغيرة ممتلئة بالزهور الملونة، وأرجوحة صغيرة بيضاء اللون.
خلفهم باب بني اللون فتحته السيدة، ودخلت نور وسارة اللتان بدتا منسجمتين جدًا.
انتظرت قليلًا، ثم خرجت سارة وخلفها نور.
وقفت نور عند الباب ولوحت بيديها لسارة.

******

تقدمتُ نحوَ الطاولة أحاول التظاهر بأنني أبحث عن مجلة ممتعة، وقفت عدة دقائق حتى شعرت بشخص يتقدم نحوي يمد يديه بمجلات كانت معه.
وقفت أنظر إليه بتعجب مُفتعَل، ما الذي يفعله؟ –رغم أن هذا

ما كنت آمله-.
أخيرًا نطق وقال: "هذه المجلات لطيفة، لقد قرأتها للتو".
تركت المجلات وعدت إلى أمي وأخبرتها أن المجلات قديمة، وليست ممتعة، لم أجد شيئًا مناسبًا.
أما في داخلي فكنت أشتعل نارًا أي حمق طغى على عقلي؟ لم فعلت هذا وتركته؟ كان من الممكن أن آخذ المجلات من يديه، أو أشكره على الأقل، لكني كنت متوترة جدًا، فلم أعرف كيف أتصرف.
دقائق معدودة مرت، ثم رأيت أخته تقترب نحوي، الكرسي بجانبي كان شاغرًا، جلست وقدمت نفسها إليَّ.
- "أنا سارة، أتذكرينني؟ تصادفنا الأسبوع الماضي".
- "أهلًا، أنا نور، بالطبع أذكرك".
- "أريد أن أسالك: كيف طبيبك؟ أهو جيد؟ أنا لا أشعر بالراحة مع هذا الطبيب"، هكذا بدأت سارة التواصل، يا لدهاء الأنثى!
- "ممم، إنه جيد جدًا، لقد عرفت هذا الطبيب من صديقتي".
- "أسبق لك أن وضعتِ ترميمًا لسنٍّ مكسورة عنده؟"
- "لا، لكن أمي فعلت ذلك العام الماضي، ولا أذكر أنها اشتكت من شيء، فهذه السن في أفضل حال".
- "أوه، هذا جيد، أعتقد أن هذه الزيارة ستكون الأخيرة عند طبيبي، وسأحجز معك المرة القادمة".
- "حسنًا، أتمنى لكِ الشفاء، كيف كُسِرَت سِنُّك؟"
- "الأمر مضحك قليلًا، كنت أتناول المكسرات، ولم أنتبه لوجود حبة بندق ما زالت بقشرتها، حاولت قضمها بقوة فكسرتها".
بدأت أضحك أنا وسارة وأمي، كانت تعابير وجهها وهي تشرح لنا الموقف مضحكة جدًا، إنها بالفعل خفيفة الروح.
بينما على الجهة المقابلة كان هناك شخص كلما أحسست بوجوده

زادت حرارة جسدي، وكلما رفعت بصري نحوه وجدت عينيه ناحيتي، حاولت الامتناع عن النظر إليه، لكن حرارة جسدي كانت ترتفع كلما فكرت فيه.
خرجت الممرضة لتنادي على اسم المريض التالي وكان اسمي.
وقفت لمصافحة سارة، وكنت أظن أنني لن أراها مرة أخرى، هذه آخر جلسة لي مع الطبيب، لن آتي إلى العيادة مرة أخرى.
وضع الطبيب الحشوة الدائمة، وطلب مني عدم تناول الطعام عليها اليوم، خرجت من عنده ممسكة بيد أمي أمام باب العيادة خارجين منها حتى وجدت سارة تناديني من الخلف.
– "نور، انتظري".
– "سارة، ما الأمر؟"
– "سوف نقلُّكما بالسيارة، ولن أقبل بالرفض هذه المرة".
– "لا داع لذلك بالفعل، فالمنزل قريب حقًا".
– "هيا خالتي، دعيني أشرف بتوصيلكما إلى المنزل، لا تستمعي إلى نور"، وافقت أمي؛ لأنها كانت بالفعل متعبة، ولا تستطيع أن تنتظر كثيرًا في الشارع لإيجاد سيارة أجرة، والجو حار جدًا.
– "حسنًا، لا بأس هيا بنيتي".
صعدنا إلى السيارة أنا وأمي، جلست خلف مقعد السائق.
ذلك الضخم.
الحرارة تنبعث منه لا من محرك السيارة.
أكاد أسمع صوت أنفاسه.
كان سيدير محرك السيارة عندما قاطعته سارة طالبةً منه عصير الخوخ.
كان بالفعل الجو حارًا جدًا، وكنت عطشى بالفعل، لكنني استحيت، وفضلت أن أتحمل ذلك العطش، وأتحامل على نفسي حتى نصل إلى المنزل.

دعانا أنا وأمي إلى تناول شراب بارد، رفضنا بلطف.
لكنه ترجل من سيارته ذاهبًا إلى البقالة حيث اشترى العصير لنا جميعًا.
احتفظت بخاصتي لم أشربه، كان باردًا جدًا لكني كنت أذوب خجلًا، لا أستطيع رفع عينيَّ، حتى سارة كانت تتحدث مع أمي أكثر مني، كنت أخجل من الكلام، وأخاف أن أقول كلمة بلهاء حمقاء، فأبدو أمامه كالغبية.
وصلنا إلى المنزل بعد أن وصفت له أمي الطريق، ترجلنا من السيارة، وطلبت مني سارة أن تدخل دورة المياه.
دخلنا إلى المنزل وأنا أشعر بحرارته خلفي، اختفينا في الداخل عدة دقائق وحين خرجت سارة تبادلنا أرقام الهواتف، وخرجت مسرعة إلى أخيها.
لوحت لها بيدي، لكن عيني كانت عليه هو لا على أخته.
في إحدى المرات التي كنا نتحدث فيها أنا وسارة على الهاتف، أخبرتني سارة أنها ستزرونا هي وأمها، في البداية استغربت الأمر جدًا، لكنني فرحت، ستتسلى أمي بمعرفتها، فهي أيضًا ليس لها صديقات أو معارف في هذا الحي، منذ أن أتينا، كما أنه يجب أن تتعرف عائلاتنا على بعض حتى يُسمَحَ لنا بتبادل الزيارات المنزلية.
في مساء يوم الاثنين زارتنا سارة وأمها، كانت أمها سيدة لطيفة بالفعل حين رأتني مددت يدي لمصافحتها، لكنها تجاهلت أمر المصافحة واحتضنتني بحنان شعرت به حقًا.
دخلت أنا وسارة المطبخ، أعددت صينية رائعة تحتوي على أنواع من الفطائر والكعك وبعض المعجنات الشهية، الرائحة كانت تعبق المنزل، أفرغت سارة العصير في الكؤوس، وخرجنا لتقديمه.
بعد قليل من الأحاديث استأذنت أنا وسارة للذهاب إلى غرفتي، أريد أن أريها بعضًا من أغراضي، ونثرثر كباقي الفتيات، تركت

أمي تنفرد مع الخالة بالحديث قليلًا؛ ليشبعن غريزة الثرثرة أيضًا، نحن معشر النساء نعشق الثرثرة.
توطدت علاقة أمي بوالدة سارة –الخالة ليلى– إنها شخص ودود جدًا وبشوش حقًا، أصبحت أمي وأمها تزوران بعضهما البعض، وتذهبان إلى السوق سويًا، تشتريان الأقمشة، وبعدها تذهبان إلى الخياطة التي قد زكتها الخالة ليلى.
توقفت أمي عن خياطة ملابسي فقد تركت ماكينة الخياطة في ذلك البيت القديم حين تركناه بسبب تلك الأفعى الدامية، الطائفية، ولا شيء سواها.
بدأت أيضًا بتعليم سارة بعض الوصفات، إنها تذكرني بنفسي كيف كنت أهرب من المطبخ لأني أكرهه، أما الآن فقد أصبحت أمضي نصف وقتي فيه والنصف الآخر مع سارة، كان بالنسبة لي لذة ومتعة وهواية.

****

توطدت العلاقة بين نور وأختي وأصبحت تزورها كثيرًا، كنت أخجل من مصارحة أمي بالأمر، ومن طلب الذهاب إلى بيتهم لخطبة نور، خاصةً بعد أن كثرت الزيارات بينهن، وتأكيد أمي على أنها قد أحبت نور، فقد كانت تمدحها كثيرًا.
لكن سارة كانت تنتهز خجلي، وتتعمد الحديث أمام أمي عنها، كنت أصب كامل تركيزي معها حين تتحدث عن نور وعن الطعام الشهي الذي تعده.
لكن سارة كانت تتوقف فجأة عن الحديث لتسألني: "لم كل هذا

التركيز في حديثي؟ أهو الفضول؟ أم لأنه يخص نور؟"
كنت أضحك في بعض الأحيان، وأصفها بالبلهاء وأتظاهر بأن الأمر ليس كذلك، ولا يعنيني، نسيت أنني كنت قد طلبت منها في العيادة أن تتعرف عليها، وألححت كثيرًا.
حتى حاصرتني في الكلام.
– "أتنكر أنك طلبت مني أن أتعرف عليها؟!"
– "سارة، توقفي عن ذلك السخف".
– "قل فقط إنك لم تطلب مني ذلك وسأحذف رقمها من هاتفي حالًا، ولن أتحدث معها مرة أخرى".
كانت أمي تتنقل بعينيها بيننا وهي ضاحكة.
– "أمي، أقسم لك أنه مهووس بتلك الفتاة منذ أن قابلها في العيادة أول مرة وحتى اليوم".
– "بنيّ، إن كانت تعجبك سأخطبها لك".
غيرت وضعية جلوسي بعد أن كنت متكئًا؛ لأجلس مستقيمًا.
– "حقًا أمي؟!"
ضحكت أمي هي وسارة بينما سيطر عليَّ الشعور بالبلاهة من ردة فعلي، استأذنت منهما وانصرفت إلى غرفتي، جلست إلى مكتبي، ولم يشغل بالي سوى نور، جلست أتذكر شكلها في العيادة، بكل تلك التفاصيل.
قاطعتني سارة:
– "غيث".
– "يا إلهي!" صوتها مزعج.
– "نعم، ماذا تريدين؟"
– "أردت أن أخبرك أننا ذاهبون لبيت نور غدًا، ستتحدث أمي مع أهلها عن الخطبة".
– "غدًا؟!"

– "نعم، ألا يعجبك ذلك التوقيت؟ أتريد أن نؤجله إلى الأسبوع المقبل؟"
– "لا، لا، هذا توقيت جيد".
– "حسنًا، عليك أن تفي بوعدك لي، أريد الزيادة في المصروف والبدء في تدريبات القيادة كما وعدتني".
– "حسنًا، سنبدأ بعد غد".
عادت سارة إلى أمي وأغلقت الباب خلفها، بينما عدت لأسبح في خيالي مع نور.
لا أعلم كم يومًا مر حتى أتى الغد المنتظر؟
انتظرت عودتهما بفارغ الصبر، أعتقد أنني لم أصبر هكذا من قبل في حياتي.
حين فتح باب المنزل ودخلت أمي وسارة حاولت التصنع أن الأمر لا يهمني كثيرًا، ولم أتحدث أو أسأل شيء.
لكن الأمر كان باديًا على ملامحي وتصرفاتي ورعشة يدي، إنني أحترق لأعلم ما الذي حدث.
– "أمي كيف كان يومك؟"
– "جميل".
– "جميل فقط!"
كانت أمي تحاول أن تخفي ابتسامتها عني، إنها تتعمد اللامبالاة في ردودها كي تثير أعصابي.
– "أمي، ماذا حدث في الزيارة؟ أخبريني من فضلك".
– "أوه، الزيارة كانت لطيفة يا بني، لقد تسلينا اليوم كثيرًا".
– "أهذا كل شيء؟"
– "نعم، هل من المفترض وجود شيء آخر".
التفتُ ناحية التلفاز، وبدا على وجهي الامتعاض، لم تتحمل أمي وانفجرت ضاحكة.

****

بالطبع حين تأتي سارة كان التوأمان يذهبان إلى بيت عمي للعب وترك المنزل لنا لنتصرف بحرية، وحين كنت أذهب لزيارتهم كان إخوة سارة لا يبقون في المنزل أبدًا.
بعد عدة زيارات اتفقت خالتي على زيارتنا يوم الجمعة، ولم يكن الأمر غريبًا فقد اعتدنا تلك الزيارات من حين إلى آخر.
أتت خالتي في الموعد وجلست مع أمي.
نصف ساعة مرت بالحديث والضحك، ثم خرجت الخالة تحمل حقيبتها وبجانبها أمي ونادت سارة، سوف تذهبان، لقد تضايقت، لم أرد لسارة أن ترحل الآن، لم ينته حديثنا، لكن بدا على أمي الصمت والاندهاش، ودعتني الخالة محتضنة إياي مرة أخرى واحتضنت أمي كذلك.
خرجت هي وسارة، ورحلتا.
نظرت إلى أمي بعد أن أغلقت الباب خلفهما.
– "ما الأمر؟!»
حين أخبرتني أمي توقف لساني عن الكلام، أصبحت عاجزة عن النطق، احمر وجهي، كنت أشعر أنني سأنفجر؛ بسبب ارتفاع حرارة جسدي، كان يتعرق بشكل رهيب.
أسرعت إلى غرفتي بعد أن استأذنت أمي حين انتهت من الحديث معي،
لم أتوقف عن قضم أظفاري من شدة التوتر.
سأتزوج!
سأتزوج هذا الضخم!
لقد أعجبته!

طلب الزواج مني!
كان قلبي يخفق بشدة مثلما رأيته في العيادة أول مرة، أشعر بنبضات قلبي تهز جسدي، كانت يداي ترتعشان بينما كنت أبتسم دون أن أشعر بذلك.
بعد أسبوع، كان الضخم وأخوه الكبير ضرغام، الذي عاد من أوروبا بعد أن أخبرته أمه أنهم سيتقدمون لخطبتي، وأخوه الصغير باسم جالسين مع أبي وعلي وعمر في غرفة الاستقبال.
بينما كنت أنا وسارة في غرفتي كانت تهدئ من توتري وتضحك عليَّ وتحاول أن تقلد تعابير وجهي المتوترة،
لكن عقلي استقر في غرفة الاستقبال.
أمي والخالة كانتا في غرفة المعيشة.
بعد ساعة ونصف سمعت صوت أبي ينادي أمي، وبعدها عم السكون، مرت دقيقة ووجدت أمي أمام باب غرفتي،
أبي يريد التحدث معي.
مشيت خلف أمي، وتبعتني سارة، ورأيت أبي أمامي.
كان باب الاستقبال مغلقًا حتى منتصفه، سقطت عيناي على الغرفة، رأيت قدميه الطويلتين، خفضت بصري خجلًا، وتوقفت أمام أبي.
الخجل يجعلني أتورد، ويزيد وجهي احمرارًا.
دخلت أمي وسارة غرفة المعيشة.
نظر إليَّ أبي، وبدأ بالحديث:
– "ابنتي، هل توافقين على الزواج منه؟"
– "لا أعلم أبي، سأفعل ما تراه مناسبًا".
– "إن وافقت على هذه الزيجة هل ستكونين سعيدة بنيتي؟"
– "كيفما ترى يا أبي وتريده".
قلتها وأنا أكاد أنفجر خجلًا واحمرارًا.

مسح أبي بيده على رأسي، ودخل إلى غرفة الاستقبال، أما أنا فدخلت غرفة المعيشة مع أمي والخالة وسارة.
خرج أبي بعد عدة دقائق مناديًا أمي التي ذهبت إليه مسرعة، وعادت إلينا بأصوات الهلاهل والضحك والابتسامة التي غمرت ملامحها، ما أحلى لحظات السعادة!
أما أنا فإنني عاجزة عن وصف شعوري تلك اللحظة.
قلبي لا يتوقف عن الخفقان بشدة، أقسم أنني أسمعه يهز جسدي.
يداي متعرقتان جدًا،
وقدماي لا تستطيعان حملي.
أشعر أنني أحلم، حلمًا سقياه السعادة، وغذاؤه البهجة.
أريد أن أراه الآن، لا، لا أريد، كيف سأنظر إليه؟ وكيف أحادثه؟
أشعر بخجل شديد.
بعد أن قرأ أبي الفاتحة مع الرجال عاد إلى غرفة المعيشة، وقال لأمي:
"غدًا سيتم شراء الذهب والخواتم".
رحل الضيوف، وبدأت أنا وأمي في ترتيب المنزل ورفع كؤوس العصير وأطباق الحلويات، كنت خجلى من أمي جدًا وأحاول تجنب النظر في عينيها، أشغلت نفسي في ترتيب الاستقبال، وصعدت إلى غرفتي بعد أن جهزت مع أمي العشاء واعتذرت عنه.
استلقيت على سريري ترى كيف سأتحدث معه،
غدًا سنخرج لشراء الذهب، يا إلهي! إنه ضخم.
عليَّ أن أجد حذاءً بكعبٍ عالٍ؛ كي لا أبدو صغيرة بجانبه.
ينبغي أن أتوقف عن مناداته بالضخم.
إنه غيث، قلت اسمه وتورد وجهي خجلًا، إنني أبتسم كلما فكرت فيه ويرتعش قلبي.

غفوت بينما كنت سارحة في التفكير فيه، حتى شعرت بضوء الشمس الذي يخترق زجاج نافذتي يداعب عيني
قمت مسرعة من سريري، اتجهت إلى الحمام بسرعة، كانت الساعة التاسعة والنصف حين دخلت المطبخ، كانت أمي تشرب الشاي وتنظر إليَّ مبتسمة.
"صباح الخير أيتها العروس".
شعرت بالخجل، أنا أصبحت عروسًا وسأتزوج.
جهزت الإفطار والشاي.
– "أسرعي في تناول إفطارك، سيأتي غيث وأمه وسارة بعد نصف ساعة".
كنت أبتلع قطعة الخبز، لكنها وقفت في حنجرتي، سأراه بعد نصف ساعة وأنا بهذه الحال.

تركت الإفطار واتجهت مسرعة لغرفتي، توجد بعض الهالات السوداء حول عينيَّ، سأحاول إخفائها ببعض مستحضرات التجميل.
وقفت أمام الخزانة عدة دقائق لأجد شيئًا ملائمًا، لكن خزانتي فجأة أصبحت لا تحوي شيئًا يلائمني،
هذا مبهرج ولا يليق،
هذه القميص أشعر أنه ممل وغير مناسب، هذه التنورة ضيقة بعض الشيء،
لقد ارتديت هذه الملابس في العيادة أول مرة، وهذه أيضًا في المرة الثانية،
اغرورقت عيناي بالدموع، لا أجد شيئًا ملائمًا، رغم امتلاء الخزانة.
دخلت أمي غرفتي بعد أن طرقت الباب.

– "ماذا تفعلين هنا؟"
– "أمي، لا أجد شيئًا ملائمًا لألبسه، جميع ملابسي بشعة وليست جميلة".
– "حسنًا، أنتِ من اشترى جميع هذه الملابس، كيف أصبحت الآن بشعة؟ توقفي عن البكاء سنجد شيئًا جميلًا ترتدينه".
مسحت دموعي وهي بجانبي تحاول إيجاد شيء ملائم، أخرجت لي قميصًا من الشيفون لونه لؤلؤي، وتنورة واسعة فضفاضة باللون البني الفاتح، أما الحذاء فكان بكعب صغير بني اللون، والحقيبة كانت صغيرة باللون البني أيضًا،
ارتديت بعض الإكسسوارات، وساعة من الجلد البني أيضًا.
تركتني أمي لأرتدي ملابسي، وذهبت لتتجهز هي أيضًا، حين انتهيت وخرجت من غرفتي كان جرس الباب يدق، إنها سارة، لقد وصلوا.
كان غيث وأمه ينتظران في السيارة حين خرجت من الباب أنا وأمي وسارة ترجل من سيارته مسرعًا.
وقعت عيناي عليه لا أعلم ماذا حدث لي، لكنني شعرت برعشة سرت جسدي، من خصلات شعري حتى قدميَّ.
تقدم نحونا وألقى السلام على أمي ونظر إليّ.
أقسم أنه كان يقطر خجلًا، وجهه كاد ينفجر احمرارًا.
– "كيف حالك؟"
– "بخير".
قلتها بصوت متعثلم، لا أعلم إن كان قد سمعني أم لا.
جلست أنا وأمي وسارة في الخلف، بدأ الجميع بالحديث والضحك لكني لم أكن استمع إليهم، كنت في عالم آخر،
هل كان يجب أن أسأله عن حاله؟! أنا غريبة فعلًا، إنه تصرف أبله، أووه، أنا خجلى، سيظن أنني متكبرة، سرحت بخيالي وكأنني

أناقشه.
– "ألا تعتقدين ذلك يا نور؟"
– "ها، نعم بالطبع خالتي".
أجبتها وأنا لا أعلم عمَّ كانت تتحدث، كان موقفي مخجلًا، شعرت أنها انتبهت إلى أنني لم أعرف عم كان الحديث، تجنبت النظر في أعينهم، وانشغلت مع سارة في حديث آخر.
بينما تركنا ذلك الضخم يقود السيارة إلى سوق الذهب.
تلك الحرارة التي تنبعث منه تزيد من حرارة جسدي، كنت أتجنب النظر إليه، في حين أن أمي وأمه وأخته معنا، أشعر أننا نقطر خجلًا.
وصلنا إلى السوق، ودخلنا أحد المحلات، وجدنا صعوبة في اختيار خاتم مناسب لي، فأصابعي نحيلة، ولا تعجبني أشكال الخواتم المناسبة لقياس إصبعي، أعتقد أننا في النهاية دخلنا جميع المحلات الموجودة، حتى وجدت شيئًا يرضيني.
كنت أقف بجانبه، بينما هو لم يزح عينيه عني، كان يشاركني الاختيار، بينما كنت قلقة من أن يشعر بالملل مني، أو يضجر، لكنه على عكس ذلك تمامًا ظل بجانبي، وكلما رأى أنني لم أجد شيئًا مناسبًا أخذني إلى محل آخر.
أما خاتمه فقد طلب مني أن اختاره له، وبالفعل أول خاتم أشرت إليه كان قياسه مناسبًا له، وأعجب به غيث جدًا. خرجنا عائدين إلى المنزل، لكن الخالة رفضت، صممت على دعوتنا للغداء وأمي رفضت بحجة أنها لم تخبر أبي بأننا سنتأخر في السوق ونذهب إلى الغداء معهم.
بالنسبة إليَّ كنت أتوق إلى أن أمضي معه وقتًا أطول، في داخلي كنت أدعو كي توافق أمي على دعوة الغداء، لكن انتهى الأمر بالرفض، وعدنا إلى المنزل.

ترجلت من السيارة، وسلمت على الخالة وسارة، رفعت بصري نحوه،
كان يقف قبالتي، والهواء المنعش يداعب خصلات شعره البنية، بينما انعكاس نور الشمس التي شارفت على الغروب في عينيه جعلتني أقف صامتة أمامه.
– "أتمنى أن تكوني قد أمضيتِ نهارًا لطيف معي، أقصد معنا".
– "بالطبع، أنا سعيدة جدًا".
لا أعلم إن كنت قد قلتها بحماسة زائدة أظهرتني كالحمقاء أم لا، لكن لا بأس.
"حسنًا، أتمنى لكِ ليلةً هانئة".
– "شكرًا، وأنت أيضًا".
كانت أمي والخالة لا تزالان تتحدثان، قالت سارة:
– "أنا سأدخل معك إلى المنزل، أريد أن ألقي التحية على عمي".
دخلت وتركت أمي والخالة في الخارج.
كان أبي ممسكًا بأحد الكتب، منهمكًا في القراءة، قاطعته سارة لتلقي عليه التحية وخرجت بعدها إلى غيث.
دخلت أمي بعد عدة دقائق:
– "أمي، لم كل هذه الأحاديث في الخارج؟ لماذا لم تدخلا المنزل؟"
– "رفضت الدخول، كنا نتناقش حول بعض الأمور، ما دخلك أنتِ؟"
– "أووه! أمي، حسنًا سأذهب لتغيير ملابسي".
أسرعت إلى غرفتي، انتهيت من تغيير ملابسي، وعدت إلى أمي التي كانت قد بدأت بإعداد الطعام لأبي.
بينما عمر وعلي قاما بتحضير الطاولة.
– "عليكم التعود على هذا الأمر، سترحل الفتاة وأنتما ستقومان

بالطبخ والكنس والتنظيف مع ماما".
قالها أبي ممازحًا الصبيين اللذين استنكرا الأمر، فقال له عمر:
– "أبي أحضر لنا خادمة".
– "لِمَ؟"
– "أنا لا أحب أعمال الفتيات، أحضر خادمة لتساعد أمي".
– "ليس لدي مال يكفي لإحضار خادمة".
قفز علي قائلاً:
– "حسنًا أبي، سأساعد أمي شرط زيادة مصروفي إلى الضِّعف".
استمر الضحك بين أبي والأولاد حتى انتهى تحضير الطعام، وانصرف الجميع إلى غرفة المعيشة بعد الانتهاء من تناول الطعام، أما أنا فقد توليت مهمة ترتيب الطاولة وغسل الأطباق.
أردت أي شيء يشغلني عن الجلوس معهم، أشعر بالخجل من أبي.
وعمر وعلي المشاكسان لن يتوقفا عن إزعاجي وإحراجي أمام أبي، كان عقلي ليس معي، بل معه طوال الوقت، انتهيت وصعدت إلى غرفتي، أريد النوم قليلًا، وجدت هاتفي يرن، إنه رقم غريب، أنا في العادة لا أجيب على أرقام لا أعرفها.
ضغطت على الزر الأخضر وبقيت صامتة لأسمع الطرف المقابل،
كان صوته:
– "مساء الخير".
– "مساء النور، غيث!"
– "أعتذر لقد أخذت رقمك من سارة بدون أن أبلغك".
– "لا عليك، كيف حالك؟"
استمرت المكالمة حتى الليل، وأصبحت هذه حالنا يوميًا.
كنت كالوردة التي سقيت، وتفتحت من جديد،

أشعر أن وجهي تورد وابتسامتي أصبحت أكثر جمالاً منذ أن أحببته،
احتفلنا بالخطبة بحفل بسيط في منزلي، وارتدينا الخواتم،
استمرت خطبتنا سبعة أشهر.
كانت أروع فترة قضيتها في حياتي، ابتسامتي لم تفارق وجهي أبدًا، أشعر وكأن روحي التي انطفأت منذ الحرب قد عادت مرة أخرى.
نسيت أمر الدراسة والحزن الذي سيطر عليَّ بسبب ذلك الأمر، كان غيث أروع من أن تصفه الكلمات.

****

لم أتحدث منذ وقت طويل، سأختصر لكم الأمر، واصفًا مشاعري فقط،
أصبح لدي طفلة صغيرة مدللة،
نور صغيرتي.
إلهي كم سأسجد لك شاكرًا عليها.
أتعلمون كيف سيكون نهاري إن استيقظت صباحًا على صوتها،
قدمت في عدة وظائف جديدة أريد زيادة راتبي، أريد أن أدللها أكثر.
أختنق حين يمر عليَّ عدة ساعات دون أن أسمع صوتها.
أصبح كل تفكيري فيها، ولها.
كيف أسعدها؟ أية هدية ستبدو أجمل؟ ماذا سأشتري لها غدًا؟
ترتعش يدي حين أصافحها، ماذا سيحدث لي ولروحي إذا احتضنتها ؟
استأذنت عمي في أن نذهب أنا وهي وسارة للغداء سويًا، وافق عمي.

اتصلت بها لأخبرها، كانت تقفز فرحًا، شعرت بتلك الفرحة في ردة فعلها.
التقينا في اليوم اللاحق، انتظرتها أنا وسارة أمام منزلها بسيارتي.
حين خرجت كانت رائعة الجمال، عطرها كان يداعب أنفي، جلست سارة في الخلف بينما جلست هي بجانبي، أخيرًا شعرت بدفء مشاعرها وحرارة قربها.
اشتريت لها دبًا كبيرًا، كانت قد أخبرتني أنها أضاعت الدب الذي كان لديها وهي صغيرة في الحرب ونسيته في منزلها القديم عند رحيلها منه.
تركت الدب في صندوق السيارة؛ كي لا تنتبه إليه، سأعطيها إياه في نهاية اليوم.
تناولنا الطعام، سارة استأذنت كثيرًا بحجة الذهاب إلى المرحاض، لكنها كانت تريد أن تفسح المجال لنمضي بعض الوقت بمفردنا، يعجبني ذكاء أختي، إنها أنثى بنفس دهاء الإناث، وذكائهن.
بعد عدة ساعات معها حان وقت عودتها إلى البيت، خرجنا إلى السيارة لنعود إلى المنزل، غمزت بطرفي لسارة، ففهمت وقالت إنها ستبحث عن شيء من أغراضها نسيته في المطعم.
أخرجت الدب وقدمته لها.
كانت عيناها تلمع من الفرحة، ذكرت اسمي والفرحة تقفز من عينيها،
كانت تبتسم كالطفلة الصغيرة، حبيبتي طفلة ملائكية.
قفزت لتحتضنني.
لقد غاصت في صدري، شعرت بأنفاسها وبنبض قلبها ولمسة يديها عليَّ،
ارتعش جسدي، احتضنتها أكثر اكتنفها قلبي قبل صدري، شممت عطرها وددت لو توقف الزمن الآن، لا أريدها أن تبتعد عن

صدري الآن.

****

خرجنا لتناول الطعام سويًا ومعنا سارة، لكنها كانت تتركنا الكثير من الوقت، وحين كنا ذاهبين إلى السيارة لنعود إلى المنزل قالت سارة إنها نسيت شيئًا من أغراضها على طاولة المطعم، وعادت بينما أكملنا طريقنا نحو السيارة فتح غيث الصندوق وأخرج علبة كبيرة بداخلها دب كبير يشبه كثيرًا ذلك الدب الذي نسيته في منزلي القديم وقت الحرب.
لم أشعر بنفسي، كانت فرحتي عارمة، ارتميت في حضنه، شعرت بأنني صغيرة جدًا حين احتضنته، كنت مختفية تمامًا في حضنه، سمعت صوت دقات قلبه التي زادت وأصبحت غير منتظمة.
شعرت بذارعيه يكتنفان كياني، توقف العالم بالنسبة إليَّ، الآن لا أريد أن أبتعد عنه الآن.
رأيت سارة تقترب فابتعدت عنه مسرعة تصادمت أعيننا، شعرت بالخجل الشديد مما فعلت، خفضت بصري، وشعرت بحرارة الخجل، سأذوب الآن، يداي بدأتا تتعرقان، ازداد وجهي حمرة.
بقينا صامتين وصعدنا إلى السيارة، بقيت صامتة طوال الطريق كنت خجلى جدًا، لا أود الحديث، سارة أخذتها إغفاءة في الطريق، وصلنا إلى المنزل وحين مددت يدي لأفتح الباب سحب غيث يدي الأخرى وقربها إلى شفتيه وقبلها.
الآن توقف الزمن وأنا أنظر في عينيه وهو ممسك بيديَّ، أريد احتضانه مرة أخرى، أريد الاقتراب منه مرة أخرى والغوص في صدره، مرات ومرات.
لكنني فتحت الباب، وسحبت يدي من يده، ودعته بابتسامة

وصوت متعثلم أعتقد أنه يعذرني الآن.
كثيرة كل تلك المشاعر التي حصلت عليها في يوم واحد، شعور جديد.
كانت أجمل أيام حياتي معه، حددنا موعد الزفاف بعد أن عجز عن إيجاد وظيفة راتبها يكفي لاستئجار بيت، كانت الأوضاع صعبة في وطني، وافقت على العيش مع أهله، كان البيت مكونًا من طابقين،
قام حبيبي بترتيب الطابق الثاني لنقيم فيه.
يوم الزفاف كان رائعًا، بدأ من العصر حتى منتصف الليل، فستاني الأبيض المطرز كان بسيطًا، ليس مبهرجًا ولا مملًا، فقط يلائمني.
أما غيث فكان أوسم الرجال على مر الزمن، وسيدهم، إنه مولاي.
تلقينا التهنئة من جميع أصدقائنا، قام بدعوة الكثير من الناس الذين أمضوا الليل كله يرقصون ويمرحون، بينما أنا وغيث كلما تلاقت نظراتنا أبعدتها، كنت أشعر بخجل شديد، لو كان الأمر بيدي لبقيت طوال الوقت أحملق فيه بلا ملل، تزوجنا، نشوة الكلمة تكفي بين الأحبة.
بعد عدة أسابيع شعر زوجي بعدم راحتي،
لم أشتك له من شيء، لكنه لاحظ أن ثيابي لم يعد باستطاعتي ارتداؤها؛ فمعظمها قصير ومكشوف، من المستحيل ارتدائها في وجود إخوته معنا في نفس المنزل.
عاد إلى المنزل وكان يبدو عليه التعب، لكنه رفض إخباري ما الأمر.
إنه ينهك نفسه في العمل كثيرًا، الهالات السوداء حول عينيه بدأت تظهر، وأصبح ينام مبكرًا من شدة الآلام في ظهره، قدماه بدأت تتورم؛ بسبب الوقوف كثيرًا، كنت أنتظر غفوة منه لأقوم

بتدليكها له وهو نائم، فيشعر بي يحتضنني وننام، يهمس بأذني قائلاً: "أعدك بمنزل بمفردك؛ لنعيش فيه أنا وأنتِ فقط".
لا يمكن لطفلة أن تنام بدون أن تشعر بأمان بجانبها.
أما أنا، فكان الأمان يحتضنني بذراعيه كل ليلة.
وجد غيث وظيفة أخرى بجانب العمل كشرطي، استطاع تجميع مبلغ من المال، واستأجرنا منزلًا صغيرًا بعد أن علم أنني أحمل بداخلي طفلنا الأول.
كنت أريده ذكرًا، وأراده فتاة، تناقض لذيذ.
كانت فرحتي عارمة، لدي الآن منزلي الصغير أنا وأميري، سنعيش سويًا سأنجب الأمير الصغير، وسأسميه جود سيكون مثل أبيه وسيمًا رائعًا سيحبه الجميع، مثل أبيه.
سأجعله يشبه غيثًا في كل شيء، في ملابسه وشعره وتصرفاته، سيكون لي نسخة مصغرة منه.
لكن الأمر لم يكن كذلك، أنجبت فتاة.
كاد غيث يطير فرحًا، بينما كانت دموعي تتساقط، أردت نسخة صغيرة من غيث، وحصل هو على نسخة صغيرة مني.

****

أنجبت لي صغيرتي أميرة صغيرة، كانت نور تريد أن تنجب ذكرًا، أقنعتها بأننا سننجب الذكر المرة القادمة بعد أن تتحسن صحتها.
أصبح لدي أميرتان الآن، لا أكفُّ عن تدليلهما، "فريدة" الصغيرة كانت تداعب لحيتي بأصابعها الصغيرة، لم أستطع النوم يومًا دون أن أراقبها وهي نائمة في حضن نور.
كنزي الثمين هما.
****

بعد أن أنجبت فريدة ازدادت المصروفات، وأصبح غيث يقضي وقتًا أطول في العمل.
ماذا سأستفيد من المال والعيش بمفردي في منزل صغير وأنا لا أرى غيثًا إلَّا قليلًا.
إنه يتعب كثيرًا، الأمر لا يستحق أن يتعب هكذا.
أقنعته بالعودة إلى بيت أهله وترك البيت المستأجر، المال الذي ندفعه في الإيجار سنوفره لمولودنا القادم جود،
عدنا إلى العيش في بيت عائلته، تقبلت الأمر بشكل أكبر وأصبحت أشعر بالراحة أكثر، بعد أن سافر أخواه، الكبير ضرغام والصغير باسم.
لكن عمتي كانت قد اعتمدت علي في أشغال المنزل.
أصبحت كالعاملة في البيت، أرعى الطفلة الصغيرة، وأهتم بمنزل كبير، لم يزعجني في الأمر سوى أن سارة تقضي يومها في الجامعة والدراسة، وعندما تعود تنام، ثم تستيقظ وتبدأ بطلاء أظفارها، أو وضع مستحضرات الترطيب لبشرتها،
أما أنا فلا يوجد لدي الوقت الكافي لتمشيط شعري في المرآة.
ذات ليلة كنا نتناول العشاء سويًا أنا وغيث وسارة وعمتي، انتهينا من الطعام، فرت سارة مسرعة لغسل يديها وعمتي بعدها ثم غيث، أما أنا فقد طفح الكيل بي، كنت واقفة بجانب الطاولة أحاول أن أتماسك.
خرج غيث من دورة المياه بعد أن غسل يديه، وجلس بجانب أمه يشاهدان التلفاز، وخرجت سارة من غرفتها تستشير أمها أي طلاء أظفار سيكون مناسبًا مع الكنزة الجديدة التي اشترتها الأسبوع الماضي.
أمسكت بالأطباق الفارغة، وذهبت إلى المطبخ.

وجدت الحوض وقد امتلأ بالأطباق المتسخة والقدور التي يجب عليّ أن أنظفها قبل أن أنام.
سمعت قهقهاتهم في الصالة، لم أشعر بنفسي سوى وأنا أرمي بكل الأطباق صوب الحائط، اتجهت نحو الحوض المليء بالأطباق ودست على قطع الزجاج التي تناثرت على الأرض لم أشعر بها وبدأت بكسرها أيضًا.
سمعت صوت غيث يأتي راكضًا، وسارة تأتي وهي تنفث الهواء من فمها لتجفف طلاء أظفارها وتسألني عم حدث بكل دهشة وبراءة.
كانت عيناي قد اغرورقتا بالدموع بينما غيث يقف على عتبة الباب يفتش في الأرض عن بقعة خالية من الزجاج؛ ليتمكن من الدخول.
مشيت نحوهم دون أن أرد على تساؤلاتهم، صعدت الدرج إلى غرفتي، كانت آثار الدم قد أغرقت الدرج؛ بسبب الجروح التي أصابت قدمي حين دست على الزجاج.
دخلت غرفتي واتصلت بأخي عمر.
– "عمر، أريدك أن تأتي حالًا.
– "ماذا حدث؟ أنت بخير؟ صوتك يرتجف".
– "لا شيء، أنتظرك، بسرعة".
شعرت بغيث يقف خلف الباب، حيث إنني لم أغلقه تمامًا، فكان مفتوحًا قليلًا.
قمت وأغلقت الباب في وجهه، التفت خلفي، كانت فريدة تنعم بنوم عميق، مشيت بهدوء نحو دورة المياه الخاصة بغرفتي، فتحت صنبور المياه وغسلت وجهي أكثر من مرة، وقد أصبح أشد حمرة من شدة الغضب، العروق في وجهي انتفخت، نظرت إلى الهالات تحت عيني، أمضيت نحو خمس عشرة دقيقة أحملق

في وجهي.
بينما أنا أنظر في المرآة، سمعت صوت جرس المنزل، أعتقد أنه عمر.
حاولت المشي، لكن قدمي آلمتني جدًا، نظرت تحتهما، فإذا بمنظر مفزع من الدم، لم أشعر بشيء بسبب شدة غضبي، كنت أشعر بحرارة رهيبة، أما الآن وبعد أن هدأت أصبح جسدي باردًا كمكعب ثلج، وشعرت بألم جروح قدمي، حين خرجت من غرفتي، سمعت صوت الباب يقفل، وصوت محرك السيارة، هرعت نحو النافذة وجدت عمر يعود بسيارته إلى البيت،
لا بد أن غيثًا أعاده من حيث أتى.
كنت أنوي الذهاب معه إلى البيت، لا أريد المبيت هنا الليلة.
طرق غيث الباب طرقًا خفيفًا.
– "لم أعدت أخي؟"
– "لا يمكنك الخروج والمبيت هناك، هذا بيتك، ولن تذهبي لبيت آخر".
– "بيت أبي هو منزلي، وهذا البيت ليس كذلك، أنا هنا كعاملة التنظيف".
– "أعتذر لك عما حدث".
تغيرت نبرة صوتي وأصبحت عصبية أكثر:
– "لا أريد أن تعتذر، أريد أن أذهب من هنا، لا أريد النوم بجانبك في غرفة واحدة، ولا أريد أن أرى أحدًا من أفراد هذا البيت".
ظل غيث صامتًا، لم ينطق بحرف واحد مما زاد من غضبي، خرج وأقفل الباب وراءه.
جلست على سريري واحتضنت وسادتي، لا أعلم متى غفوت، لكنني شعرت بعد عدة ساعات بغيث يمسك بقدمي برفق ويمسح عليها المعقم الخاص بالجروح.

****

بعد أن تناولنا الطعام وجلست مع أمي نشاهد التلفاز، تركت نور بمفردها لتنظف الطاولة والأطباق،
أخبرت سارة أكثر من مرة أن تساعد نور في أعمال المنزل، وعنفتها كثيرًا لكن دون جدوى، كنت أنوي أن أتكلم مع أمي في هذا الموضوع الآن، لكنني سمعت صوت أطباق تتكسر في المطبخ، هرعت إلى هناك،
كانت نور تقف بوجه شاحب وعروق وجهها منتفخة من الغضب، كنت أعلم أن شيئًا كهذا سيحدث يومًا.
وازداد الأمر سوءًا حين أتت سارة، وهي تحاول تجفيف طلاء أظفارها، رأتها نور في هذا الوضع وازداد الغضب في عينيها، مشت نحوي، شعرت بالحرارة التي تنبعث منها، تجاهلتني وصعدت إلى غرفتها، أما أنا فأمسكت سارة من ذراعها وأخبرتها أن تنظف كل ما في المطبخ فكل هذا قد حدث بسببها.
لم تجادلني خاصة حين التفتت إلى أمي ورأتها تنظر إليها بعين غاضبة.
صعدت إلى نور وسمعتها تتحدث مع أخيها، تريده أن يأتي ويأخذها.
لم يكن الباب مغلقًا تمامًا، حين شعرت بوجودي أغلقت الباب في وجهي.
ظللت واقفًا بجانب الباب لا أعلم كيف سأمتص هذا الغضب، وهي محقة فيما فعلت، لها كل الحق.
نزلت إلى أسفل، وبحثت عن دلو التنظيف، وضعت فيه الماء والمطهر الخاص بالأرضيات وقطعة قماش، وذهبت أنظف بقع الدماء التي خلفتها آثار أقدام صغيرتي، ومضى عقلي شاردًا في

التفكير فيها، وكيف ستمضي هذه الليلة؟ ماذا سأفعل؟ وكيف أعتذر لها؟
قاطع شرودي رنين الجرس، كان عمر قد أتى بناء على رغبة أخته،
تحدثت معه وأقنعته بالعودة إلى البيت بدونها، إن ذهبت معه سيزداد الأمر سوءًا وتعقيدًا، وإن حاولا الحديث ستزيد عصبيتها أكثر، اقتنع وذهب إلى سيارته عائدًا لمنزله.
لا بد أن نور قد سمعت رنين الجرس، صعدت مسرعًا نحوها لأشرح لها الوضع.
أول جملة خرجت منها كانت تسأل لم أرسلت أخاها دون أن يأخذها؟
حاولت أن أشرح لها وأفهمها أنني لا أستطيع أن أتركها ترحل هذه الليلة، إن تركتها فسوف يصبح ذلك روتينًا يحدث مع كل شجار بيننا.
صدتني بكلامها، قالت إنها لا تريد رؤيتي ولا النوم معي في نفس الغرفة، أو رؤية أفراد عائلتي.
خرجت وأغلقت الباب خلفي.
شعرت بأنني قد كسرت، ليس من كلامها لي.
بل لأنني كسرتها أولًا، أهملتها إلى أن شعرت بكل هذا الغضب، وأختي تمادت في إهمال أعمال المنزل، خذلتها وهي مدللتي الصغيرة.
لم يكن الأمر متعمدًا، فأنا أعود من العمل منهكًا، لا أعلم بما يدور حولي.
لكن نور محقة في الغضب، أقر بهذا.
نظفت جميع بقع الدماء، وسارة أنهت التنظيف في المطبخ.
صعدت إلى غرفتنا، كانت نور تحتضن وسادتها، ملامحها باكية

ورموش عينيها مبللة.
كانت قد قطبت حاجبيها، من المؤكد أنها تتألم من قدميها،
أحضرت المعقم والقطن، وبدأت برفق أمسح تلك الجروح، لكنها استيقظت.
أمسكت قدمها بقوة؛ كي لا تحركها وأكمل التعقيم، بينما هي كانت صامتة وعيناها باكيتان.
انتهيت وذهبت لأغسل يدي، وعدت إليها،
جلست بجانبها لا أجد كلامًا أعتذر به عن إهمالي،
اعتدلت وحاولت الجلوس، وأسندت ظهرها إلى الوسادة،
خرج منها صوت خافت متقطع:

– "أعتذر لأنني غضبت هكذا".
لم أشعر إلا وأنا أحتضنها بشدة.
"بل أنا من يجب أن يعتذر، أهملتك جدًا هذه الفترة، أنا منهك بسبب العمل، أنت تعلمين أن أمي كبيرة في السن لا تستطيع أن تقوم بمهام البيت".
– نعم، لكن سارة..."
قاطعتها قائلًا: "أنت محقة، سارة مدللة كثيرًا، وقد تحدثت معها كثيرًا، أعتقد أنه بعد ما حدث الليلة ستتجنب تكرار هذا الإهمال".
أعدتها مرة أخرى إلى صدري.
– "أعتذر لأنني قلت لا أريد رؤيتك أو النوم بجانبك في الغرفة".
– "لا بأس، أعلم أنك لا تعنين ما قلتِ صغيرتي".
****

بعد أربع سنوات قررنا الإنجاب، أريد أن أحظى بنسخة غيث المصغرة،
استيقظت في صباح يوم الأحد وأنا أشعر بغثيان شديد، ودوار

أشد،
حاولت تناول الإفطار، لكنني شعرت بغثيان من الطعام ورائحته، أعتقد أنني حبلى، أخبرت خالتي وذهبنا إلى الطبيبة؛ للتأكد أخذت مني عينة دم، وبعد ساعة خرجت الممرضة نادت باسمي، دخلت وأنا ممسكة بيد خالتي، كنت خائفة أن يكون هذا عرضًا لمرض بسيط، أو ضعف وليس حملًا.
فتحت خالتي باب غرفة الطبيبة ودخلنا، جلست وخالتي أيضًا، كانت قدماي تهتزان دون إرادتي من القلق، لكن سرعان ما بشرتني الطبيبة وهي تضحك في وجهي مهنئة.
عدت إلى المنزل، كنت متوهجة من شدة الفرحة، أمسكت الهاتف واتصلت بأمي؛ لأخبرها، كانت سعيدة جدًا هي وأبي، دعت لي بالولد الصالح، لطالما شعرت أنني أريد فتى، نسختي الصغيرة من ملاكي الكبير.
قمت بتحضير أطباق الحلوى التي يحبها غيث، ورتبت غرفتنا الخاصة، أضأتها بالشموع، أطعمت فريدة وحممتها وبدلت ثيابها، وجلست معها حتى غفوت قبل مجيئه بنصف الساعة.
سمعت صوت المفاتيح وهي تدخل في الباب، فصعدت مسرعة إلى غرفتنا وتأكدت من إضاءة كل الشموع، جلست على السرير انتظره.
بعد عدة دقائق سمعت صوت أقدامه تصعد السلم، حتى وصل إلى الغرفة،
كانت أطرافي ترتجف، وجف حلقي من التوتر، قدماي تهتزان، ويداي تتعرقان.
فتح الباب، دارت عيناه في المكان، كان منهكًا، لكن بعد أن رأى حال الغرفة ارتسمت على وجهه ابتسامة اشتقت إليها جدًا، اقترب مني.

– "ما الأمر؟"
– "ألا يعجبك ما فعلته بالغرفة؟"
– "بلى، أعجبني كثيرًا، لكن اليوم ليس عيد ميلادي ولا ذكرى زواجنا".
– "حسنًا، إنه أمر آخر، فكر، هيا".
– "لا أستطيع التفكير، أخبريني أنتِ".
قالها وهو يتقرب مني،
اقتربت من أذنه وهمست:
– "ستصبح أبًا مرة أخرى".
احتضنني غيث، ورفعني عن الأرض، كأن تعبه قد اختفى فجأة، كان وجهه قد توهج من الفرحة، وضعني على السرير برفق وأمسك يدي:
– "من الآن أميرتي لن تتعب نفسها في شيء، كل ما تريدينه سيأتي إليك".
– "لكنني لا أزال في أشهر الحمل الأولى، بإمكاني فعل ما أريد قبل أن تكبر بطني".
– "كلا، ذلك الأمر منتهٍ، لن تتحركي من السرير طوال الأشهر التسعة".
رفع قدميَّ، ومددهما على السرير، وقبَّل يدي ورأسي.
إلهي، كم أعشقه! احفظه لي.
بعد أن أصبحت في شهري الثامن كنت أتحرك بصعوبة شديدة، وازدادت آلامي وتعبي، لم يتذمر مني يومًا واحدًا، كان يتحمل مزاجيتي وعصبيتي بسبب الحمل، كان يساعدني في غسل الأطباق وتحضير الطعام،
منذ أن بدأت بطني في الظهور بدأ بالتنظيف أوقات إجازته.
أخبرني أنه سيغيب لمدة أسبوع في عمله، بدأت بالبكاء.

– "كيف لك أن تتكرني الآن؟"
– "حبيبتي، إنه أسبوع واحد فقط وسأعود".
– "لن تذهب يا غيث، كيف سأنام ليلًا وأنت لست بجانبي؟!"
– "أميرتي، أعدك أنها أول وآخر مرة، لا يمكنني ألا أذهب، إنه عملي".
مد يده ومسح دموعي، قربني من صدره، بكيت حتى غفوت.
أيقظني في الصباح وهو يداعب خصلات شعري، أمسكت بيده، كانت دافئة، تحدثنا قليلًا، واستيقظت فريدة، حملها عاليًا؛ فبدأت بالضحك قربها من صدره، واحتضنها بشدة.
إنها المرة الأولى التي سيرحل عنا، تناولنا الإفطار، وقام بتجهيز حقيبته، أخذها وذهب لأمه، قبَّل رأسها ويديها، واتصل بأخيه ضرغام وباسم ليودعهما.
بدأت خالتي بالبكاء، لم تعتد على رحيل غيث عنها مدة طويلة كهذه.
احتضنني بشدة، وقبل فريدة واحتضنها، تقرب من بطني وأمسكها بيديه:
– "أهلًا أيها الصغير، بابا سيسافر بضعة أيام، لا تشاغب في غيابي وأحسن التصرف مع ماما".
قبل بطني الكبيرة، فانفجر الجميع بالضحك، سحب حقيبته وذهب، كانت عيناه مليئتين بالدموع، لكنه تماسك أمامي؛ كي لا أبكي أكثر.
خرج من باب المنزل، وصعد إلى سيارته، خرجت خالتي وراءه ورمت بعض الماء، دعت الله أن يحميه ويرده سالمًا.
مرت ستة أيام على غيابه، إنه يتصل بي كل يوم أكثر من مرة، ويتصل بخالتي أيضًا.
استيقظت في اليوم السادس لغيابه الموافق: 8/11/2013 الساعة

السابعة صباحًا على صوته، كان يتصل بي ليوقظني، أخبرني أنه أنهى عمله وسيعود الآن في الطريق.
قمت من سريري متكئة على طرفه، وذهبت إلى خالتي لأخبرها بعودة غيث، لكنها أخبرتني أنه قد اتصل بها وأخبرها.
كان ضرغام قد عاد من السفر الأسبوع الماضي؛ ليمضي العطلة هنا هو وزوجته وأطفاله، ومعهم باسم.
رتبنا المنزل وحضرت خالتي الطعام الذي يحبه.
صممت على إعداد بعض الطعام بنفسي، لا بد أن يأكل من يدي أيضًا.
انتظرته أربع ساعات لكنه لم يأت، اتصلت به، هاتفه كان مغلقًا، سأنتظر قليلًا، ربما فرغت بطارية هاتفه، حتمًا سيطرق الباب في أية لحظة.
حل المساء ولم يأت بعد، ازداد قلقي، ولم تتوقف دموعي، رغم انقباض قلبي إلا أنني قلت لنفسي:
"سأتشاجر معه حين يأتي، كيف تركني أبكي بسببه؟ لماذا لم يتصل بي من أي هاتف آخر ليطمئنني عنه، سأتشاجر معه وأخاصمه وأنام دون أن أكلمه.
كانت الأفكار تدور في رأسي سريعة مضطربة وجلى، لكنني كنت أنتظر دخوله من الباب؛ كي أجري نحوه، وأحتضنه.
سمعت صوت سيارة تتوقف أمام المنزل، قمت مسرعة، مسحت دموعي، خرجت خالتي لتفتح الباب، سبقها باسم الذي خرج مسرعًا لكنه عاد ومعه ضرغام الذي كان وجهه متهجمًا وعابسًا، كأن مصيبة حدثت.
جلس ضرغام وأمامه أنا وخالتي وباسم، منتظرين منه أن يتحدث.
"ما الأمر؟"
نظر ضرغام إلى خالتي ثم إليَّ.

لسانه عاجز عن النطق، في تلك الأثناء كانت فريدة تفتح الباب، ظنت أن غيثًا هو من أتى.
فتحت الباب وهي تقول: "بابا!"
أجهش ضرغام بالبكاء، غطى وجهه، لطمت خالتي على صدرها وركضت نحوه، أما أنا فقد تجمدت في مكاني، تسمرت، لا يمكنني الحراك ولا البكاء، توقف قلبي عن النبض، أطرافي ترتجف.
احتضن ضرغام خالتي، وخرج منه صوت باكٍ لا أكاد أسمعه.
"لقد مات غيث!"
لم أستوعب ما قال، أأنت أحمق؟ ماذا تقول؟ أين غيث؟ صرخت.
بكيت، لطمت، عدوت إلى الخارج أنادي: "غيث! غيث!"
جرني ضرغام إلى الداخل، أجلسوني على الكرسي وقال: "أنت حامل، انتبهي، توقفي عما تفعلين".
صوته لا يدخل أذني، أرى شفتيه تتحركان، ما الذي يحدث؟ العالم يدور ولا يتوقف الآن، لم اختفت أصواتكم؟ أين غيث؟ أحضروه لي.
ابتعدوا عني.
انتبه ضرغام إلى باسم وهو يحاول أن يوقظ خالتي التي فقدت الوعي، كانت فريدة تختبئ خلف الباب ممسكة بالدب الذي أحضره لي غيث.
أتذكرونه؟ ذلك الدب الذي احتضنت غيث لأول مرة عندما أحضره لي.
أريد أن أحتضنه الآن، خذوا الدب، وأعطوني غيثًا مرة أخرى.
بكيت حتى بحَّ صوتي، بل اختفى تمامًا.
أين غيث؟ أنتم تكذبون، غيث اتصل بي، وقال إنه قادم اليوم، أنا أعددت له الطعام بيدي، توقفوا عن هذه المسرحية السخيفة، أرجوكم!

غيث في السيارة أنتم تكذبون.
خرجت حافية نحو المرآب إلى السيارة ركلتها، أين غيث؟ جرني ضرغام للمرة الثانية ليدخلني إلى البيت، لكنني فقدت الوعي قبل أن أدخل.
فتحت عيني كان السقف أبيض لا يشبه سقف غرفتي الذهبي، أين أنا؟
غيث، أوه غيث سيأتي اليوم، لا بد أن النعاس غلبني، أين فريدة؟ لا أسمع صوتها.
حاولت الجلوس كانت في يدي "كانيولا" نظرت إليها: "أين أنا؟ ما هذا السرير؟ أين أنا؟ أجيبوني، غيث!"
كنت في المستشفى، دخلت أمي.
– "أمي، ما الأمر؟ لم أنا هنا؟"
نظرت إليَّ، وعيناها حمراوان من كثرة البكاء، وجهها أصفر شاحب.
– "أمي، ما الأمر؟ لم أنتِ حزينة؟ هيا ساعديني، عليّ العودة إلى المنزل الآن، غيث قادم اليوم، أمي، أين فريدة؟ أين تركتها؟ أمي، لم لا تجيبينني؟
أمي، أعطني هاتفي؛ لأطمئن على غيث".
كانت أمي جامدة بجانبي، دموعها تتساقط وهي تنظر إليّ، سحبت هاتفي واتصلت بغيث، كان هاتفه مغلقًا،
"أمي، غيث هاتفه مغلق، لا بد أن بطارية هاتفه فرغت، هيا ساعديني على الوقوف.
أمي، لا تقفي هكذا، ما الأمر؟"
حاولت الوقوف، وسحبت "الكانيولا" من يدي، تقدمت أمي لتسندني، وكانت أضعف من ذلك.
فتح الباب أخي "علي"، تقدم بسرعة إليّ وهو يبكي، احتضنني.

– "علي، ما الأمر؟ لم تبكي صغيري؟"
نظر علي إلى أمي باستغراب، وصوتها قد ارتفع بالبكاء.
– "علي، هيا ساعدني على الخروج".
مسح علي دموعه وتسندت عليه لأخرج، كان باسم في الخارج ينتظرني هو وأبي وعمر، تقدم عمر بسرعة وأخذ بيدي الأخرى وأنا أنظر إليهم.
– "ما الأمر؟ لم تبكون؟!
أين غيث؟"
– "أمي، غيث سيأتي الآن، لقد اتصل بي منذ قليل، ألم تسمعي وأنا أحادثه؟ لم البكاء إذن؟! إنه قادم،
قال لي أن أنتظره أمام المستشفى، وسيأخذني بسيارته ومعه فريدة أيضًا،
أمي، هيا بالله عليكِ، لم أنت واقفة؟!"
كان الجميع واقفًا لا يتحدث، رأيت الطبيبة تتقدم نحوي وتطلب مني العودة إلى السرير.
رفضت بشدة، وقلت لها: "إن غيثًا ينتظرني في الخارج.
إنه متعب من السفر، لا بد أن أعود الآن.
ابعدي يديك عني".
قيدني عمر وعلي، صوت بكاء أمي قد زاد، أما أبي فكان بكاؤه يقطع نياط قلبي.
أعادت الكانيولا إلى يدي، نظرت إلى أبي وقالت: "إنها في حالة صدمة".
دست حقنة مهدئة في الوريد الذي يوصل المحلول المعلق بالكانيولا التي في يدي، دقائق وغفوت.
****

غيث، لم رحلت؟

غيث، هيا قم معي أخبرهم أنك بخير.
غيث، افتح عينيك، ألا تراني أبكي؟
أنت لم تتركني يومًا أبكي بمفردي.
هيا مد يدك وامسح الدموع عن وجهي.
غيث، تحرك، لم لا تتحرك الآن؟
غيث، صوتي لا يخرج.
غيث، أنا أموت الآن.
انظر إليّ، غيث!
غيث، احتضنني،
غيث، لا ترحل،
غيث، قلبي،
قتلوه، أخذوه مني،
أميري رحل، من سيدللني الآن؟!
من سيحضر لي الحلوى؟!
غيث، من سيحملني وينادديني بالقزمة القصيرة؟!
غيث، أنا لا أستطيع الوصول إلى الرف العلوي، من سيحملني الآن؟!
غيث، قم، هيا كف عن المزاح.
غيث، لا تفعل هذا بي، غيث!
****

رحل غيث، استشهد حين كان عائدًا إليَّ.
(داعش) فجرت الطريق الذي كان يمر به.
قتلوه كما قتلوا بقية شعبي.
السفاحون المجرمون، يختبئون تحت اسم الإسلام، وهو منهم بريء.

رحل غيث، لكن بدلته قد عادت، تلك التي كان يرتديها.
عادت وهي ملطخة بالدماء، بأنقى وأطهر وأشرف دماء.
طلبت من أمي أن تعتني بفريدة وتأخذها عندها، رفضت الذهاب عند أمي والعيش معها هي وأبي، أريد أن أقضي أيام العزاء في غرفتي أنا وغيث.
أمضيت الليل أحتضن بدلته الملطخة بدمائه،
كنت أتحدث معها،
هل تألم؟
أم مات سريعًا ولم يشعر بألم؟
بم شعر؟
ألا يشتاق إليَّ؟
أريده أن يحتضنني الآن؛ لأنام، كان حضنه منامي وسكينتي.
أعجز عن النوم الآن، أعيدوا إليَّ غيثًا؛ لأستطيع النوم.
دعوه يأتي ويحتضنني، يداعب خصلات شعري برفق يبتسم إلي ويقبل يدي، أريده بشدة،
غدًا سيأتون بجثمانه،
غدًا سأقف وأصلي عليك يا غيث.
****

أحضروه في صندوق خشبي طويل، تمالكت أعصابي وبدوت متماسكة جدًا، طلبت من ضرغام أن يفتح الصندوق، أريد أن أراه لآخر مرة،
الجميل،
الوسيم،
صاحب الابتسامه الفاتنة،
إنه نائم بعمق،
الضخم، آهٍ!

غيثاه!
حتى ووجهك مشوه،
أنت فاتن ووسيم،
عيناك الجميلتان مغمضان.
كان قلبي متوقفًا،
لا أشعر بنبض ولا حياة.
العالم انتهى،
لا وجود لأحد الآن،
أنا وأنت فقط،
غيث، أفسح المجال قليلًا،
خذني بجانبك،
جسدك بارد كالثلج،
بل كالموتى،
أنت ميت.
لا،
أنت شهيد!
أنت غيث قلبي،
الغيث يروي الأرض،
وأنت تروي القلب.
كانت دماؤك غيثًا طاهرًا يروي أرض وطني، الكلمى، الحزينة،
رحلت الآن.
كنت جالسة بجانب النعش أتحدث معه؛ علـه يشفق على حالي ويرد علي، لكنه لم يفعل.

****

مرت أيام العزاء الثلاثة.

كان يجب عليَّ العودة إلى منزل أهلي؛ لأقضي بعض الوقت هناك.
كلما بقيت في بيت غيث ساءت حالتي أكثر،
أغلقت باب غرفتنا بالمفتاح، واحتفظت به معي.
ساعدني علي وعمر في حمل حقائب ملابسي أنا وفريدة، وصلنا إلى بيت أبي، مررنا بجانب أحد المطاعم.
هنا قدم لي غيث ذلك الدب،
هنا احتضنته لأولِ مرة،
لم يكن ليلي ليلاً، ولا نهاري نهارًا، كنت بلا لون، روحي قد انطفأت، حياتي قد توقفت عند رحيله، أجبروني على تناول الطعام، رفضته في البداية،
لم يكن ذلك تمنعًا ولا تكلفًا، حقًا فقدت شهيتي في الحياة بكل ما فيها.
لكنني كنت مضطرة إلى تناوله بسبب حملي، حتى الطعام لا أشعر بمذاقه، أشعر أن الهواء ثقيل لا يدخل إلى صدري، أشعر أنني ضعيفة، لا أتحمل ما حولي، أحسست أنني هشَّة، ضعيفة، وسأنكسر،
أي انكسار أكثر من ذلك؟!
بيتي انهدم، انتهى ورحل مع غيث.
غيث، أميرتك الصغيرة تتألم الآن.
لم تجف وسادتي يومًا منذ رحيلك، عد إليَّ، زرني على الأقل في أحلامي،
بعد مرور ثلاثة أسابيع استيقظت من نومي على آلام الولادة.
ناديت بلا وعي مني: "غيث!"
توقفت قليلًا، سقطت دموعي وكأنها كانت تنتظر أن أذكر اسمه لتسقط.

لم يأت غيث، إنه ميت.
دخلت أمي غرفتي بسرعة.
– "أمي، إني ألد، أمي، استدعي عمر وعليًا".
نادت أمي على الصبيين اللذين ساعداني في الوصول إلى السيارة،
ذهبت إلى المستشفى، سألد الصبي الذي أنتظره،
سألد نسختي من غيث، نسخة صغيرة، بعد أن راح الكبير.
غيث لم يرحل، قطعة منه بقيت هنا، إنها فريدة، وسأنجب الأخرى.
كان غيث يريدها فتاة أيضًا، أخبرني أنه يود أن يسميها ليلى تيمنًا بأمه.
****

بعد أن أفقت من أثر المخدر طلبت منهم إحضار المولود إليّ، تبدل شيءٌ بداخلي، لم أعد أريده ذكرًا، أريد أن أحقق رغبة غيث.
أحضرته الممرضة وهي تبتسم:
– "مبارك، فتاة مثل القمر".
انفجرت باكية، حملتها ونظرت إلى أصابعها الصغيرة، أمسكت هاتفي، كنت سأتصل بخالتي لكنها فتحت الباب ودخلت، كانت عيناها دامعتين.
– "خالتي، إنها ليلى الصغيرة،
غيث كان قد أخبرني سابقًا أنه يود أن تكون فتاة ليسميها تيمنًا باسمك".
انفجرت خالتي باكية، حملتها وقبلت يدها الصغيرة، وداعبتها قليلًا.
أعادتها إليَّ لإرضاعها، كنت أنظر إليها باكية، إنها تشبه غيثًا بالفعل، عيناه البنيتان وشعره الكثيف، أنفه وشفتاها تمامًا مثل

غيث.
لم تتوقف دموعي أبدًا، كلما نظرت إليها أشعر بالحسرة، أبوها رحل وهي لم تره.
لم يرها هو أيضًا، ولم يحملها بين ذراعيه لم تشعر بأمانه، ولا بحضنه، لم يدللها كما دللني أنا وفريدة، لم تشعر بدفء لمسته.
أنتِ سيئة الحظ بنيتي.
****

قضيت شهورًا في بيت أهلي، قررت أن أستلم الراتب التقاعدي الخاص بزوجي الراحل، لكن وكما هو معروف لن أحصل على شيء في بلدي،
تقدمت بعدة شكاوى وطلبات، لكن الأمر كان بلا جدوى.
صادفت إحدى السيدات أثناء معاملاتي الورقية، كانت تقريبًا حالتها مشابهة لحالتي، نساء بلدي جميعًا مثلي.
أخبرتني أنها اضطرت لدفع رشوة بمبلغ كبير لأحد الموظفين؛ كي يقوم بتسهيل المعاملات الورقية، فتستطيع الحصول على الراتب التقاعدي، طلبت منها رقم الرجل وأعطتني إياه، لكن ماذا سأفعل به؟ أنا لا أملك أي مال لأدفعه، وليس لأهلي أية أموال ليدفعوها، ومبلغ الرشوة كبير لا أستطيع أن أستدينه من أحد.
كنت عائدة إلى البيت، وجدت صديق علي جالسًا في الاستقبال يلاعب فريدة، عادت إليّ ابنتي وهي تحمل الحلوى بيدها.
– "ماما، انظري ماذا أعطاني عمو؟"
– "بنيتي، أقلتِ شكرًا؟"
– لا، نسيت!"
عادت فريدة تركض إلى الرجل.

– "شكرًا عمو".
طبعت قبلة على لحيته،
لقد كانت تقبل لحية أبيها، أين هو الآن؟
سقطت دمعة من عيني، مسحتها بسرعة قبل أن تنتبه لي فريدة.
– "ماما، لقد شكرته".
– "أميرتي الصغيرة، هيا، أين العناق الخاص بي؟!"
قفزت فريدة في حضني، شعرت بأن غيثًا هو من يحتضنني.
غيث رحل، لكنه ينبض بداخل فريدة وليلى.
عليّ أن أقف وأكون قوية، لن يهزني شيء بعد الآن.
ليس لي نقطة ضعف سوى طفلتيَّ، لن أسمح لأحد بالتقرب منهن.
لن يهزني أي ألم، لن أضعف أبدًا بعد الآن، يجب أن أكون كذلك؛ حتى لا يقلق غيث.
غيث، لا تقلق أنا بخير الآن.
تناولنا العشاء، وحممت ليلى وبقيت معها حتى نامت.
نزلت إلى غرفة المعيشة، كان علي يلاعب فريدة.
– "علي، من هذا الرجل الذي كان هنا اليوم؟"
– "إنه صديقي، لماذا؟"
– "إنه يبدو كبيرًا بعض الشيء".
– "نعم، إنه كبير، لقد تعرفت عليه في الجمعية الخاصة برعاية الفقراء والمساكين والمهجرين من الحرب، ومن فقدوا منازلهم، إنه رجل طيب جدًا يقوم بمساعدة الفقراء والمحتاجين، وقد اتفقنا اليوم أن أذهب معه الأسبوع القادم حين يقوم بتوزيع تلك المساعدات".
– "أها، هذا جيد، وفقكم الله".
أخذت فريدة وذهبنا إلى النوم، لكن عقلي لم يتوقف عن التفكير، أنا أثقل على عائلتي، فريدة وليلى طلباتهما كثيرة، عليّ أن

أتصرف في أمر الراتب التقاعدي بسرعة، لم تغف عيناي طوال الليل بسبب ليلى، كانت تعاني من ألم في معدتها، ولم تتوقف عن البكاء إلا حين أشرقت الشمس.
نامت صغيرتي، ولم أستطع النوم بسبب التفكير.
نزلت أنا وفريدة، وتركنا ليلى نائمة، كان وجهي مرهقًا، وكانت عيناي متعبتين، صادفت عمر وهو يخرج من الغرفة، ركضت إليه فريدة، حملها ونظر إليَّ:
– "ما الأمر؟ لم تبدين شاحبة هكذا؟"
– "لا شيء، ليلى كانت تبكي طوال الليل، ولم أنم جيدًا".
– "أها، اصعدي إلى غرفتك ونامي، واتركي فريدة معي".
– "سأتناول الإفطار أولًا، أنا جائعة".
جلست أنا وأمي بعد أن أنهينا الإفطار، وحكيت لها عن أمر الرشوة، وكيف سأستطيع تدبر أمري.
اقترحت عليها أن أبحث عن عمل، سأترك ليلى وفريدة معها طوال النهار،
بالفعل بدأت بالبحث عن عمل ووجدت.
عرفتني على هذه الوظيفة جارتنا، كانت تشتري من أحد المحلات ملابس ورأت ورقة معلقة كتب عليها "مطلوب فتيات للعمل"، ذهبت معها لكي أعرف مكان المحل، ولتخبر الرجل أنني أحتاج إلى العمل، كان صاحب المحل شابًا، أعتقد أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره.
الوظيفة ملائمة جدًا، سأقوم بفتح المحل الساعة العاشرة صباحًا، وأرحل الساعة الخامسة، ويأتي شخص غيري ليكمل اليوم حتى الليل، أعطاني المفاتيح وأخذ رقم هاتفي وعنواني في حال حدث شيء.
بدأت العمل، كنت أشعر بأنني بدأت أعيش ولو قليلًا، سأعتمد

على نفسي هذه المرة، سأكون الأب والأم بالنسبة لابنتيَّ.
اتصل صاحب المحل في اليوم الأول، ظننت أنه يحاول أن يطمئن على سير العمل، لكني لم أكن أفعل شيئًا سوى الجلوس حتى تدخل إحدى الزبائن تتفرج وتقيس الملابس، إما أن تشتري أو ترحل، وأقضي بقية اليوم أنتظر الزبونة القادمة.
استمر بالاتصال أكثر من مرة خلال اليوم الواحد.
أنا هنا منذ أربعة أيام فقط، بدأ الأمر يبدو محرجًا وسخيفًا، كيف سأتحمل العمل وهو يتصل كثيرًا بدون سبب؟!
بدأ في اليوم الخامس بالاتصال؛ ليحكي ويتكلم في أمور تافهة لا تعنيني ولا تخص عملي في شيء، حاولت أن أوقفه عند حده، وأوضح له أنني هنا للعمل لا الكلام وأنهيت المكالمة.
في اليوم السادس اتصل أيضًا، أخبرني أنه معجب!
أأنت أحمق؟ أي معجب أنت؟!
طلبت منه الحضور كنت قد أقفلت المحل، ووقفت في الشارع ما أن وصل حتى أعطيته المفاتيح، وتركت العمل وعدت إلى المنزل أجر أذيال خيبتي وحزني.
ماذا سأقول لأمي الآن؟ إنها لا تمانع أن تنفق ما لديها على فتاتي، لكني لن أقبل بهذا.
ماذا سأخبر الصبيين إن علما أن الرجل كان يضايقني في العمل؟ سيفتعلان المشاكل بكل تأكيد،
يجب ألا يعرفا، لا أريد المشاكل لإخوتي، سأخبر أمي فقط بما حدث، وأخبرها ألا تتحدث عن الأمر أمام الصبيين أو أبي، عدت إلى البيت حوالي الساعة الواحدة ظهرًا، كانت فريدة نائمة في حضن عمر، بينما علي كان يدرس في غرفته، وأبي في دكان الحلاقة.
استغربت أمي والصبيان من عودتي إلى البيت في هذا الوقت،

قال علي:
– "ما الأمر؟ لم عدتِ مبكرًا؟ أأنتِ بخير؟"
– "لن أستمر في هذا العمل، إنه مرهق".
– "أأنتِ متأكدة أنك بخير؟ ألم يزعجكِ أحد هناك؟"
– "لا، الزبائن مزعجون، وأبذل مجهودًا كبيرًا في ترتيب الملابس، سأبحث عن وظيفة أخرى".
قالت أمي: "بالطبع ستشعرين بإجهاد، فأنتِ لا تتناولين الطعام جيدًا، ولا تنامين وقتًا كافيًا، سنبحث عن وظيفة أخرى تكون أفضل من هذه".
بعد أن أنهينا الغداء ونامت ليلى وفريدة أخبرت أمي بحقيقة الأمر،
بكت أمي على حالي كثيرًا، لكنني كنت متماسكة، لو أنني على شخصيتي القديمة كنت سأنهار باكية شاكية لأمي.
لكن الحال تبدل، أنا أقوى الآن، غيث ليس موجودًا، عليَّ أن أكون قوية في غيابه، وحتى أذهب إليه.
حين آتي إليك يا غيث، سنكون في الجنة سويًا، سأحكي لك كل ما حدث، سأخبرك بكل شيء آلمني في غيابك، ستلعب مع طفلتيك كثيرًا، ستحتضن ليلى، ستعرفها معنى حضن الأب وحنانه، ستدللها كما كنت تدللني أنا وفريدة ستلعب معها، وتتركها تداعب لحيتك.
بدأت بالبحث عن عمل آخر، لن أستسلم الآن، ولا في أي وقت.
في المساء بعد أن أنهينا العشاء بدأت فريدة بالعطس ثم الرشح، ثم ارتفعت حرارتها، إنه شيء بسيط سأعطيها الدواء وستصبح بخير.
عند الثالثة فجرًا، قمت لأطمئن عليها، كانت تتعرق بشدة وحرارتها عالية جدًا، هرعت إلى غرفة الصبيين، أيقظت عليًا، وقد صعد

بسرعة إلى غرفتي، حملها وذهب إلى الحمام، فتح صنبور المياه، وجعل الماء يغطي جسدها الهزيل، كانت تبكي وتصرخ، الماء بارد وجسدها مشتعل كالجمر، استيقظت أمي بسبب صوت بكاء فريدة العالي، هرعت إلى عباءتها وارتدتها، وعلي ارتدى خفًا في قدمه، وخرج هو وأمي يحملان فريدة إلى المستشفى، بينما كنت لا أتحرك من مكاني، شعرت أن كومة من الثلج سقطت علي، لا أتحرك.

فتاتي ستموت، يا إلهي!

سمع عمر صوت علي وأمي وهما يخرجان، سألني عن الأمر وأخبرته بما حدث، أحضر إليَّ عباءتي وأيقظ أبي، وترك ليلى معه وأخذني وذهبنا إلى المشفى وراءهم.

كانوا في قسم الطوارئ، أنا أنهار، امنحني القوة يا الله.

خرج الطبيب بعد أن قام بإسعاف حالتها، كان يجب أن أذهب بها إلى الطبيب في المساء، حين بدأت بارتفاع بسيط في الحرارة.

إلهي، لا تمتحنني في ابنتي، أخذت مني غيثًا، وذلك قضاؤك، اتركها لي يا رب وتلك دعوتي.

انخفضت حرارتها، لكن الطبيب طلب حجزها في المشفى حتى الصباح،

بقيت أنا وعمر، وطلبت من أمي وعلي العودة إلى البيت، لكنهم رفضا جميعًا أن يتركانا، اتصلت أمي بأبي، أخبرها بأن كل شيء على ما يرام، وليلى هادئة نائمة.

ظللنا حتى السادسة صباحًا، وتمكنت من أخذ فريدة والعودة إلى المنزل، حين دخلت من الباب أسرعت إلى غرفة أبي، كان نائمًا وعلى يديه تغفو ليلى.

أتشعرين بهذا الأمان يا ليلى؟

أتشعرين بوجود سند بجانبك صغيرتي؟

لم أرك تغطين في النوم بهذه الراحة من قبل.
هذا هو الأب الذي حرمتك منه داعش.

كانت فريدة نائمة بين يدي، أخذها عمر وصعد إلى الغرفة، ووضعها في السرير، بينما تركت الجميع ليستريحوا، أخذت ليلى من أبي بعد أن أيقظته وطمأنته على صحة فريدة.
أخذت الفتاتين بين ذراعي وغفوت حتى العاشرة صباحًا، استيقظت ليلى، إنها جائعة، أطعمتها وتركنا فريدة لتنام.
كانت أمي قد استيقظت وأعدت الإفطار لأبي الذي تناوله ثم خرج للعمل، تركت ليلى مع أمي وخرجت لأحضر الأدوية التي وصفها الطبيب لفريدة.
مررت على الصيدلية في الساعة العاشرة صباحًا، كان بجانبها عيادة طبيب معلق عليها ورقة كتب عليها: "مطلوب سكرتارية".
عدت بالدواء، كنت مبتهجة جدًا.
حين دخلت استغربت أمي مني، كيف خرجت حزينة وجهي كان قد اكفهرت ملامحه، وعدت مبتهجة تعلو شفتي ابتسامة بسيطة، سأتقدم لتلك الوظيفة اليوم بعد أن أخبر أمي، تناولت فريدة طعامها والدواء، غفوت وهي بين ذراعي في حين كانت ليلى تلعب مع علي.
تحدثت مع أمي حول أمر العيادة، وافقت واقترحت علي الذهاب بينما فريدة نائمة وليلى تلعب، وموعد قيلولتها بعد قليل.
قفزت مسرعة لأرتدي ملابسي، وخرجت من غرفتي، وجدت عمر ينتظرني أمام الباب.
– "ما الأمر؟"
– "أخبرتني أمي أنك ذاهبة إلى التقدم لوظيفة في العيادة، سأتي معك".

– "حسنًا، لكن لِمَ؟ الأمر لا يستحق، سأذهب بمفردي وأعود".
– "لا، لن تذهبي بمفردك، أنا متأكد من أنك لم تتركي الوظيفة السابقة بسبب التعب، أنا وأنت نعلم لماذا تركتيها".
لطالما كان عمر شديد الانتباه والذكاء، كان يفهمني دون أن أتكلم أو أعبر عن مشاعري.
– "حسنًا سأنتظرك حتى ترتدي ثيابك".
بعد خمس دقائق كنا أنا وعمر نغلق الباب خلفنا، ونخرج من البيت ذاهبين إلى العيادة.
وصلنا إليها، كان قلبي يخفق بشدة، خفت أن يكون العمل قد ذهب لغيري أو يرفضني الطبيب، أنا بحاجة ماسة إلى العمل.
كان عمر يمسك بيدي التي لم تتوقف عن الارتجاف، وصلنا وتسمرت قدماي عن الدخول كان هناك رقم هاتف كتب أسفل الورقة المعلقة، رفضت أن أدخل فقد كنت متوترة، أخذ عمر الرقم واتصل به.
كان طبيب باطنة يريد سكرتارية براتب مغرٍ جدًا، أغلق عمر الهاتف معه، وأخبرني بالتفاصيل.
وافقت، انشرح قلبي قليلًا.
دخلنا العيادة بعد أن خف التوتر، جلست على الكرسي بانتظار الدخول لمقابلة الطبيب، لكن عمر رن هاتفه فجأة، واضطر لتركي لاستقبال تلك المكالمة، بينما في تلك اللحظة خرجت السكرتارية الموجودة لتخبرني أن الطبيب جاهز لمقابلتي.
كانت فاتنة، غمست وجهها في مساحيق التجميل، كانت شقراء طويلة تنتعل كعبًا عاليًا، ملابسها ضيقة بعض الشيء وملفتة للنظر، أظفارها طويلة كمخالب القطة، لونتهم بطلاء أحمر، لم يتوقف المرضى عن النظر إليها، النساء ينظرن بغيرة، والرجال بإعجاب.

نظرت إلى ملابسي، كانت واسعة فضفاضة، وجهي شاحب، أظفاري قصيرة، الهالات السوداء حول عيني، قوامي هزيل، لا أعتقد أنني سأقبل بوظيفة السكرتارية، من الواضح أن الطبيب له معايير معينة، فكرت في الانصراف قبل أن يرفض الطبيب وأتعرض لموقف محرج، لكن صوت السكيرتيرة الناعم قاطع أفكاري، أخبرتني أن الطبيب جاهز لرؤيتي.
الطبيب كان طويلًا ضخم الجسد، عيناه غائرتان تحت حاجبين كثيفين، أسود الشعر، صوته خشن مخيف، شعرت بالرهبة للوهلة الأولى، لكنه كان لطيفًا، طلب مني الجلوس، تحدثنا حول الأجر والمواعيد، وأخبرني أن السكرتيرة الموجودة حاليًا ستترك العمل بسبب السفر، وأنها سترحل عن البلاد قريبًا، اتفقنا على الموعد، سأباشر العمل بداية من الأسبوع المقبل ستكون هي قد رحلت.
****

مرت شهور على رحيلك غيث،
ألا تشعر بألمي؟
لم لا تأتي وتزورني في أحلامي؟
غيث، أشتاقك جدًا.
أشعر بك حولي في كل صباح، أشعر بأصابعك تلامس وجنتي وتوقظني من النوم، أشعر بك تنظر إلي وتبتسم، تداعب خصلات شعري وتدعوني بالناعسة محبة النوم.
ذهبت إلى العمل، إنه يومي الأول، يجب أن أكون في العيادة من الساعة الرابعة والنصف؛ لأبدأ باستقبال المرضى وتسجيل أسمائهم.
الأمر سهل، أسجل مواعيد المرضى بالترتيب، وأدخلهم إلى الطبيب حسب الترتيب فقط!

عدد ساعات العمل كانت قليلة ومناسبة وليست يومية.
الطبيب كان يتواجد في العيادة كل أحد وثلاثاء وخميس من الساعة الخامسة حتى التاسعة.
مر اليوم الأول بسلام، وعدت إلى ابنتي مبتهجة، أخذت فريدة وليلى في حضني حتى غالبهما النوم، بدأت أسرد لهما حكايتي مع أبيهما وهما نائمتان.
غيث، أترى؟ أنا أخبرهما بكل شيء عنك.
لا تقلق، سيحبانك كما أحببتك، سأذكرهن دائمًا بك، وسأحكي عنك.
قضيت صباح يوم الإثنين في السرير مع الفتاتين حتى الثانية عشرة ظهرًا.
لم أقض كل هذا الوقت معهما منذ مدة، كنت مشغولة في إيجاد وظيفة، كانت حالتي النفسية سيئة بسبب العمل السابق.
تركت فريدة تحكي وتقص لي مغامراتها الخيالية، أما ليلى فقد كانت هادئة جدًا.
كان الشباك مفتوحًا، تخترقه أشعة الشمس، وتصل إلى سريري، شعر ليلى مثلك، حين تداعبه أشعة الشمس يصبح فاتح اللون، عيناها كعينيك تمامًا حين تلامسهما أشعة الشمس مثل لون العسل.
ما زالت فريدة تحكي وعيناي تنظران إلى ليلى، كم تشبهك تلك الصغيرة.
لم ترها حتى.
– "أعتذر لك بنيتي، لكن الأمر ليس بيدي، لقد رحل غيث، سنلقاه في الجنة".
سقطت دمعة من عيني، مسحتها فورًا قبل أن تنتبه فريدة، أمسكت بها لأدغدغها، كانت قهقهاتها عالية جدًا، قاطعها طرق الباب،

إنه علي.
– "أيتها الناعسات، استيقظن".
– "ادخل يا علي، الباب مفتوح".
ما أن رأت ليلى عليًا وهو يدخل حتى رفعت يديها نحوه وهي تبتسم وتحرك يديها بقوة؛ كي يحملها.
إنها تحبه كثيرًا، حملها ونزل بها إلى أمي في الأسفل، بينما أخذت فريدة وذهبنا إلى الحمام، وارتدينا ملابسنا، طلبت من علي أن يأتي بليلى؛ لأبدل لها ثياب النوم.
بعد ساعة كانت الفتاتان قد تناولتا الإفطار، وعلي يلاعب ليلى، وفريدة تلعب بالدمى، وأنا جالسة بجانب أمي أراقبهما، أمي كانت تتحدث معي، لكنني لم أكن حاضرة بوعيي معها، عقلي توقف عند ليلى، وكم تشبه غيثًا.
أعددت الطعام مع أمي، وأمضيت باقي اليوم أنظف البيت، وأجهز غداء يوم غد، ووضعت الملابس في الغسالة، أحاول أن أستغل أيام العطلة كي لا أشعر بضغط أو إرهاق حين أذهب للعمل.
استلقيت في سريري عند التاسعة، أشعر بالإنهاك والتعب، غدًا سأذهب صباحًا مع ليلى وفريدة للتطعيم، وبعدها سأشتري لفريدة حذاءً جديدًا، وليلى بحاجة إلى علبة لبن أخرى، أخذتني الأفكار حتى غفوت، والفتاتان نائمتان بجانبي، بينما نعم البيت بالهدوء، كان علي وعمر في الخارج يشاهدان مباراة في كرة القدم.
استيقظت في الصباح، تناولت الإفطار، وجهزت الغداء، ثم أخذت الفتاتين وأمي وذهبنا إلى طبيب الأطفال للتطعيم بعد أن قمت بترتيب المنزل،
أخبرتني الممرضة أن ليلى قد ترتفع حرارتها قليلًا، فقد تناولت ليلى لقاحًا مختلفًا عن فريدة بسبب اختلاف العمر.

أخذت أمي ليلى التي لم تتوقف عن البكاء إلى البيت؛ خوفًا من أن ترهق بسبب أشعة الشمس، وذهبت مع فريدة، اشترينا حذاءً وردي اللون،
مررنا بالسوق، اشريت منه اللبن لليلى.
حين عدت للمنزل كانت ليلى نائمة، جسدها دافئ قليلًا، حرارتها مرتفعة ما يقارب نصف الدرجة، لم يكن الأمر مقلقًا خصوصًا بعد أن أخبرتني الممرضة مسبقًا أن حرارتها سترتفع.
تركت فريدة مع أمي وذهبت إلى العمل، كانت الساعة الرابعة إلا عشر دقائق، يجب أن أصل قبل الرابعة والنصف.
كنت أمام العيادة في الساعة الرابعة وعشرين دقيقة، بدأ المرضى بالحضور بعد خمس عشرة دقيقة تقريبًا، وبدأت العيادة تزدحم، والهاتف بدأ في الرنين، كان هناك بعض الاتصالات من المرضى لإلغاء الحجز أو لتأكيده، أو لحجز موعد.
أصبحت الساعة السابعة والربع، أخرجت هاتفي من الحقيبة؛ لأطمئن على ليلى، كانت هناك تسع مكالمات فائتة من أمي وعلي وعمر، نسيت هاتفي على وضع الصامت، اتصلت وقلبي يكاد يقف، يداي ترتعشان، بالتأكيد هناك أمر هام جعلهم يتصلون مرارًا، اتصلت بعلي وإذا بي أجده أمامي يلهث بقوة ويتصبب عرقًا زمجر بصوت حاد:
– "لم لا تجيبين على هاتفك؟"
كان صوتي لا يخرج، إلهي، بالتأكيد هناك مصيبة، أجبته بصوتٍ مرتجف:
– "نسيت هاتفي على وضع الصامت ولم أتفقده إلا الآن".
لا أريد أن أساله عم حدث، لا أستطيع أن أتحمل الصدمات الآن، خرج الطبيب بسبب صوت علي
توقف علي لثانية أخذ نفسه وقال:

– "ليلى في المستشفى، إنها مريضة جدًا".
كان كل المرضى الجالسين يراقبون الموقف، سمعت صوت الطبيب: "ماذا تنتظرين؟ هيا إلى ابنتك، اتركي العمل واذهبي"، سحبت حقيبتي وشكرته، وانطلقنا أنا وعلي بسيارة أجرة إلى المستشفى.
في الطريق حاولت الاتصال بأمي كثيرًا، أجابت أخيرًا:
– "ارتفعت حرارة ليلى بشكل مفاجئ، وأصبحت لا تصدر صوتًا، ولا تفتح عينيها، هي الآن مع الطبيب".
وصلت إلى المستشفى بعد عدة دقائق، أخبرني الطبيب أنها بخير، وأن ما حدث كان بسبب اللقاح، كان يجب أن أخفف لها ملابسها، وأضع لها الكمادات الباردة، وأن تشرب الكثير من السوائل.
يا إلهي! لم تخبرني الممرضة بكل هذا، لقد تركت الطفلة ترتدي الملابس الثقيلة ونائمة في السرير وقد تلحفت بالغطاء.
بعد عشر دقائق خرجت الممرضة تحمل ليلى التي كانت شاحبة قليلًا، لكن حرارتها منخفضة، الحمد لله.
نبهني الطبيب إلى إمكانية ارتفاع حرارتها مرة أخرى، وأعطاني دواء لخفض الحرارة يستخدم إذا ارتفعت حرارتها.
عدنا إلى المنزل، كانت ليلى في حضني، أشعر بنبضات قلبها ترتجف، ويداها الصغيرتان أصبحتا كالثلج.
وضعتها في السرير، وأخذت فريدة التي كانت تلعب مع أبي لتبقى في حضني قليلًا، أشعر أنني أشتاق إلى الفتاتين، لا أحب الابتعاد عنهما كثيرًا.
جهزت أمي طاولة العشاء، رفضت تناول الطعام، لم تكن لي شهية، حاول أبي إقناعي، لكنني لم أستطع، سأنهار وأنفجر باكية إن ضغط علي أحد أكثر. أنهت فريدة طعامها، أخذتها

وخلدنا إلى الفراش.
غفوت بجانب ليلى وفريدة، حين كنت أداعب خصلات شعرهما رن هاتفي الساعة الواحدة ليلًا، استيقظت فزعة من نومي، نظرت إلى شاشة هاتفي المضيئة بنصف عين.
كان المتصل دكتور أحمد.
لمّ يتصل في هذا الوقت؟ لن أجيب عليه.
تركت الهاتف لكنه عاد واتصل مرة أخرى، أجبته فلا مفر الإجابة، بالتأكيد سيسألني عن ليلى.
بالفعل، سألني إن كنت أحتاج أية مساعدة منه، ثم سألني:
– "كيف أمست حالة ليلى؟"
أخبرته أن حالتها جيدة ومستقرة، شكرته وأنهيت المكالمة.
عدت للنوم وأمضيت اليوم التالي بأكمله مع أبي والفتاتين، ذهبت إلى العمل يوم الخميس الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة.
اقتربت من الباب لأضع المفتاح، لكن الباب كان مفتوحًا بالفعل، جفلت، لكنني سمعت صوت الطبيب في هذه اللحظة يتحدث في الهاتف،
تعجبت، لم هو هنا مبكرًا؟!
انتظرت حتى أنهى المكالمة، وألقيت عليه التحية، وسألته عن سبب قدومه مبكرًا، جلس بجانبي، أخبرني أنه أنهى أعماله مبكرًا، وسألني عن ليلى وكيف أصبحت حالتها.
بعدها بدأ بالسؤال عن حالتي، أين زوجي؟ ومن هذا الشاب الذي أتى يوم الثلاثاء؟ وبدأنا بالحديث، قاطعنا صوت هاتفه، نظر إلى شاشة هاتفه، ورفض المكالمة، أخبرني أن أكون في العيادة المرة القادمة في الساعة الثالثة، وقام بفتح أدراج المكتب، كانت مليئة بالأوراق، أخبرني أنه يريد أن يتم تصنيفها، وإعاده ترتيبها، سيكون معي؛ ليوضح لي الأمر يوم الأحد القادم، وتركني ودخل

إلى غرفته بعد دقائق سمعت صوته يتحدث عبر هاتفه.
انشغلت بتجهيز دفتر الحجز لمرضى اليوم، اتصلت بأمي أكثر من مرة خلال ساعات العمل؛ لأطمئن على ليلى وفريدة، حتى عدت إلى المنزل منهكة، وغلبني النعاس.
ذهبت يوم الأحد إلى العيادة كما طلب مني في تمام الساعة الثالثة.
حين حاولت أن أدخل المفتاح وجدته مفتوحًا كالمرة السابقة، دخلت فوجدته جالسًا على المكتب يقلب في الأوراق التي في أدراج المكتب.
ألقيت التحية، وأخذت كرسيًا وضعته أمام المكتب في الجهة المقابلة له، بدأت أنظر في الأوراق، قاطعني صوته:
– "لم لا تعدين لنا كوبين من الشاي؟"
– "بالطبع".
نهضت ودخلت إلى مطبخ العيادة الصغير، وأخرجت كوبًا واحدًا له،
سمعت صوت قفل الباب يغلق!
عدت للخلف كان الطبيب يغلق الباب.
تسمرت مكاني، يا الله، ساعدني، ما الذي يحدث؟ خرجت من المطبخ وقلت له بصوت مرتفع قليلًا:
– "لم أغلقت الباب؟"
– "كي لا يظن الناس أننا في ساعات العمل ويدخل أحد المرضى".
لم أقتنع بإجابته، واستأذنت منه بالانصراف،
تقدم نحو المكتب، ترك المفاتيح وتقدم نحوي، حين كنت أعود بخطواتي إلى الخلف حتى اصطدمت بالجدار تقرب مني ولمس رأسي.

– "لم أنتِ خائفة؟"
– "ابتعد، وإلا سأبدأ بالصراخ الآن".
– "لا تُصعبي الأمور، كل شيء وله ثمنه، أعلم كم تحتاجين المال!"
حاولت الابتعاد عنه لكنه أقفل الطريق بيديه.
– "هيا أيتها الجميلة، فكري مرة أخرى، ستكونين سعيدة معي، أعدك".
إلهي، أنقذني من هذا الموقف.
ابتعد عني خطوات وقال لي:
– "كل شيء برغبتك، أنا لا أحب أن أجبرك على شيء، لكن المال سينقذك".
أخذت حقيبتي والمفاتيح، فتحت باب العيادة ورميت بالمفاتيح داخل العيادة، خرجت إلى الشارع.
كنت أمشي بلا وعي، إلى أين؟ ومن أين أتيت؟ كيف حدث هذا؟
إلهي، تعبت، لم يحدث كل هذا لي؟ كيف تجرأ أن يتحدث معي بهذه الوقاحة؟!
كانت يداي ترتعشان، جسدي كجثة متجمدة، تصلبت أطرافي.
ظللت أسير في الشوارع، لم أقو على إيقاف دموعي، كان المارة يحدقون بي، الآن أرى كل الرجال ذئابًا بشرية، بل هم أَحَطُّ.
حاول أحدهم مساعدتي.
– "أأنت بخير؟"
ابتعدت عنه وكأنه مرض معدٍ، ركضت باتجاه آخر بعيد عنه.
جميعهم بأنياب حادة، ذئاب دنيئة تريد أن تفترس كل فتاة ضعيفة.
إلهي، ما زلت صغيرة على أن يحدث لي كل هذا.
أفادني المشي كثيرًا، فقد هدأ من روعي، ومن الصدمة التي تعرضت لها،

تسمرت قدماي فجأة وتعلقت عيناي بأحد المطاعم.
هناك في الجهة المقابلة للشارع،
هناك غيث أهداني ذلك الدب الكبير، أتذكرونه؟!
هناك قفزت واحتضنته.
كطفلة صغيرة
طوقني بذراعيه،
تنفست أريجه،
شعرت بحرارة جسده،
أحسست بنبض قلبه،
لكن نبض قلبه قد توقف الآن.
قلبي توقف أيضًا،
الحياة توقفت،
الجميع يتحرك بسرعة،
إلا أنا، ما زلت في مكاني،
أنتظرك!
عدت إلى منزلي أجر أذيال خيبتي وحزني، تمامًا كالمرة السابقة.
لم لا يمكنني أن أعيش كالرجال؟ لم يستمرون بمضايقة النساء؟
لم هذا الإرهاق؟
لم كل ذلك الطمع فينا؟!
لسنا وجبة خفيفة لهم، فلدينا مشاعر.
أخبرني أنت: "كيف سيكون شعورك إن تعرضت لك الفتيات وأصبحن يضايقنك، وأنت بحكم تكوينك ضعيف، لا تستطيع الذهاب إلى العمل، أو أن تعيش بسلام دون أن تسمع كلامًا يضايقك،
لأن زوجتك قد ماتت، وأصبحت بمفردك.
ضع نفسك مكان تلك المرأة.

هل يمكنك أن تتخيل أن النساء من حولك يلهثن عليك ويردن أن يتمتعن بك ولو قليلًا لمجرد إشباع رغبة جسد؟ رغبة أحط من حياة البهيم.
حين فتحت الباب تفاجأت أمي بعودتي مبكرة، لم أستطع الحديث. دخلت غرفتي دون أن ألقي التحية على أبي واخوتي.
حتى الفتاتين أتجنب النظر في أعينهما، أشعر أن غيثًا ينظر إليَّ.
أخجل من كوني أنثى يرغب من حولي افتراسي.
– "بنيتي، افتحي الباب، ما الأمر؟ تكلمي معي، أأنت بخير؟ نور، أجيبيني، أنا قلقة بشأنك".
لم أقو على فتح باب الغرفة والنظر في عيني أمي، كيف سأحكي لها ما حدث؟ كيف جعلني هذا الوغد الدنيء أشعر بأنني سلعة رخيصة اشتهاها لبعض الوقت؟
حاول عمر وعلي الكلام معي، طرقا الباب بشدة، لكنني كنت جالسة على سريري بوضع القرفصاء، سارحة في خيالي مع غيث، أستعيد ذكرياتي الجميلة معه؛ الذكريات التي تهون عليّ كل أوجاع هذه الدنيا.
أيقظني من شرودي صوت أبي وهو يناديني بفزع ويقف أمام الباب،
قفزت من فوق سريري، مسحت دموعي التي كانت قد حفرت طريقها على خديَّ.
فتحت الباب له ودخل، جلس على طرف السرير.
– "لم لا تفتحين بنيتي؟!"
قالها وهو يمسح بيده على شعري.
تعلقت عيناي به، كيف سأخبره بما حدث؟ أقسم أنني أخجل من الكلام.

– "لا شيء أبي، أنا فقط متعبة".
– "وماذا عن العمل؟ لم عدتِ إلى البيت مبكرًا؟"
– "لقد تركته، ولن أعمل مرة أخرى".
– "هل حدث شيء؟"
– "لا، لكني متعبة من كل شيء".
– "حسنًا، لا مزيد من العمل".
– "أبي، أنا متعبة، أيمكنني النوم؟"
– "حسنًا، تناولي الطعام أولًا".
– "ليست لي شهية، فقط أريد النوم".
– "حسنًا صغيرتي، كما تشائين".
قبَّل جبهتي قائلاً: "تصبحين على واقع أجمل".
تركني أبي وعاد إلى غرفة المعيشة.
أي واقع أجمل تتحدث عنه يا أبي؟! لا يوجد واقع، كل ما أنا فيه حلم، وسأستيقظ منه حالما أرحل من هذه الدينا، وأذهب إلى غيث.
الصغيرتان نامتا مع أمي، وأنا بُليت بنوم مقلق مزعج، لم أستطع أن أغفو جيدًا، كانت الكوابيس تلاحقني.

كان صباحًا مزعجًا ومؤلمًا، أشعة الشمس التي تخترق زجاج النافذة تؤلمني، بدأت أشعر بالكراهية تجاهها، لم توقظيني أيتها الأشعة؟
اليوم لتتركني نائمة، لا أريد النظر في وجه أحد، حاولت العودة إلى النوم، لكنني أردت رؤية الفتاتين أولًا.
كنت لا أزال أرتدي الثياب التي ارتديتها أمس، قفزت من سريري، كيف أنام بتلك الملابس على جسدي؟ أشمئز منها، بل بدأت

أشمئز من جسدي،
النساء لسن جسدًا للملكية العامة ينظر إليهن من يشاء، ويشتهيهن من يشاء، تبًا لعالم بلا فضيلة، تبًا لإنسان يعبد شهواته، بل ألف تب.
دخلت إلى الحمام مسرعة، خلعت ملابسي ورميتها على الأرض، بدلت ثيابي ورميت تلك التي كنت أرتديها على الأرض.
دخلت إلى غرفة المعيشة، وكانت خالية، وغرفة نوم أمي وأبي كانت كذلك، بدأ قلبي يخفق بسرعة، طرقت باب غرفة علي وعمر، لم يجبني أحد، فتحت الباب لأجدها خالية أيضًا، لا أسمع صوتًا للفتاتين.
إلهي! قلبي سيتوقف، أين هم؟
فتحت باب المنزل مسرعة، وجدت أمي تجلس على العشب تمشط لفريدة شعرها، وليلى جالسة أمامها تلعب بالدمى.
انتبهت أمي إليَّ حين فتحت الباب بقوة، كنت فزعة خوفًا وقلقًا.
– "صباح الخير بنيتي".
– "صباح النور أمي، لم تجلسون هنا؟"
– "فكرت في أن أدع الفتاتين تتعرضان للشمس في فترة الصباح، إنها مفيدة لهما".
– "شعرت بالقلق حين لم أجد أحدًا في الداخل".
– "علي ووالدك ذهبا إلى الدكان للعمل، بينما عمر أرسلته لشراء الخبز".
– "حسنًا أماه، كنت قلقة بحق".
دخلت المنزل، واتجهت نحو المطبخ أحاول التظاهر أن شيئًا لم يحدث لي بالأمس، أعددت القهوة في حين دخلت أمي مع الفتاتين.
– "رائحة القهوة رائعة، أعدي لي فنجانًا معك".

– "حاضر ماما".
حملت الصينية وبها فنجانان من القهوة، كانت ليلى وفريدة تشاهدان الرسوم المتحركة، وأمي تجلس على الأريكة، أتذكرون كم كان أبي يكره التلفاز سابقًا؟ لم يوافق على شراء واحد حين كنت صغيرة.
علي وعمر ألحا على والدي من أجل شراء واحد، حتى قام أبي بشرائه،
جلست بجانب أمي.
– "أستذهبين للعمل غدًا؟"
تغير لون وجهي، وارتجفت يداي حين كنت أحمل الفنجان لتناول رشفة منه، امتلأت عيناي بالدموع، لم أستطع السيطرة عليها، حاولت إدارة وجهي، لكنها سقطت على خدي، فضحتني دموعي أمام أمي.
– "لا يا أمي، لن أذهب".
– "ما الذي حدث؟ تحدثي بنيتي".
أخذت مني أمي الفنجان، ووضعته على الطاولة، ثم أخذت جهاز التحكم عن بعد الخاص بالتلفاز، ورفعت صوت الرسوم المتحركة؛ كي لا تنتبه الفتاتان لي أو لحديثي.
حكيت لها ما حدث معي، وعيناي تنظران إلى الأسفل، أشعر بالخجل لكنني لست مخطئة، لماذا أخجل؟ بل يجب ذلك عليه، هو الحقير ولست أنا، هو الرخيص البخس.
شعرت بيد أمي تحتضنني، مسحت على شعري وهدأت من روعي، تنفست قليلًا، شعرت أن حجارة ثقيلة قد أزيلت عن صدري، شعرت بهمٍّ كبير، ليس لدي صديقات كي أحكي لهن وأفضفض، فقد انعزلت عن الجميع بعد وفاة غيث، بقيت بمفردي.

والآن أمي معي.
– "لا يوجد عمل مرة أخرى، انسي تلك الفكرة، ستعيشين معنا في هذا البيت، لن يضيق عليك بيت والدك".
أومأت برأسي موافقة.
وافقت بالرغم من الوضع المادي الصعب الذي بقيت فيه،
في المساء وردني اتصال من خالتي ليلى –أم غيث– أرادت أن أزورها مع الفتاتين تريد أن تراهما.
في الساعة الخامسة كانت الفتاتان قد ارتدتا ملابس الخروج خاصتهما ويلعبن مع أبي، بينما كنت أرتدي ثيابي على عجل، قام عمر بإيصالنا إلى بيت غيث.
إلهي! يصعب علي دخول ذلك المنزل، كل زاوية منه تذكرني بغيث، تركت ذكريات كثيرة هنا، لا أستطيع العيش لو بقيت في هذا المنزل، لم أكن لأتحمل ذلك.
كان ضرغام وباسم جالسين على الأريكة مع خالتي، ابنتا ضرغام مقاربتان لعمر فريدة،
انطلقت فريدة تركض نحوهم، قبلها عماها، وتركاها تلعب مع الفتاتين،
أما أنا فألقيت السلام، واتجهت نحو خالتي، احتضنتها بشدة شممت رائحتها إلهي! إنها كرائحة غيث، ابتعدت عنها قبل أن تدمع عيناي، وجلست بجانبها، لم نتوقف عن الحديث والمزاح طوال الوقت.
كانت سارة قد جهزت أنواعًا مختلفة من الطعام، وجهزت لي من كل شيء في علبة لأخذه معي،
رفضت ولكنها أصرت أن كل هذا الطعام قد أعد من أجلي أنا والفتاتين،
لم أنتبه إلى الوقت إلا حين اتصل بي عمر، كانت الساعة

التاسعة مساءً،
قال لي ضرغام بأنه سيوصلني هو وزوجته بسيارته للبيت، لا داعِ لأن يأتي عمر.
حينَ نهضنا للخروج من البيت ذهبت لأودع خالتي، التي كانت في المطبخ تضع العلب في داخل حقيبة بلاستيكية، تناولتها من يدها شاكرة إياها، واتجهت نحو باب المطبخ فوجدت ضرغام أمامي، وقد أمسك بيديه مظروفًا أبيض صغير مد يديه إليَّ به، رفضته لكنه قال لي: "هذا لبناتي وليس لك، بنات غيث هن بناتي".
ضرغام يواظب على إرسال مبلغ ثابت كل شهر لي مع خالتي حين تأتي لزيارتنا، لكن ما أعطاني إياه اليوم كان كثيرًا، أخذت المظروف منه وخرجت، كانت زوجته قد أجلست الفتاتين في السيارة، وتنتظرنا،
حين وصلنا إلى البيت كانت الفتاتان قد نامتا، ساعدني عمر وضرغام في إدخالهن للبيت، ورحل هو وزوجته.
دخلت إلى المطبخ، لأفرغ علب الطعام فوجدت مظروفًا صغيرًا آخر، كان به بعض من المال أيضًا، هذه المرة كان من خالتي.
إلهي! ما ضاقت إلا وفرجت.
بالأمس كنت أبكي لأنني لا أملك المال، واليوم معي مبلغ كبير.
لا يمكنني الاعتماد على ضرغام وخالتي، ففي النهاية ضرغام له عائلته وخالتي تساعد باسمًا في مصاريف دراسته.
فتحت إحدى العلب لأضعها في الثلاجة، توقفت للحظة،
أنا أجيد إعداد هذه الأكلة، بإمكاني إعدادها وبيعها، الجميع يفعل ذلك،
شعرت بفرحة وتفاءلت قليلًا، سأخبر أمي غدًا في الصباح، وستساعدني،

الأمر سيكون ممتعًا، سأصنع الطعام بداخل منزلي وأنا مع طفلتي، لن أضطر للابتعاد عنهما.
استيقظت في الصباح، كنت متفائلة وسعيدة جدًا بأمر صنع الطعام وبيعه، أنا متأكدة أنه عمل جيد بالنسبة إلي.
أخبرت أمي ووافقتني، وبدأت بشراء المواد التي أحتاجها، والتوابل الخاصة وبدأت عملي في نطاق الجيران ثم انتقل الأمر لجميع سكان شارعنا،
يومًا بعد يوم أصبحت أشعر بإرهاق، فإنني ملزمة بإعداد كميات كبيرة من الطعام، أصبحت أمضي وقتي كله في المطبخ.
لاحظت لفترة أن مكالمات باسم أصبحت كثيرة فجأة!
حاولت التغاضي عن الأمر واعتباره شيء عادي، لكن أمي علقت على الأمر.
لم أجد مبررًا للحديث سوى أنه عم الفتاتين، ويريد الاطمئنان عليهما،
اتصل بي الساعة الثامنة مساءً، كنت جالسة بجانب ليلى أداعب خصلات شعرها لتغفو.
أجبته وتركت ليلى لتغفو.
أتريدون ملخص الأمر؟
يريد الزواج مني،
كيف طاوعك قلبك؟ أشتهيتني أنت أيضًا؟
نفسك تدنت لي أنا؟ لزوجة أخيك؟
أخوك ينام في قبره،
وأنت تريد زوجته؟
كيف ستنظر في عيني؟
ألا تخجل من غيث؟
اتصلت بخالتي بعد أن أنهيت المكالمة معه سريعًا، وكنت

غاضبة.
أخبرتها بالأمر، لكنها لم توافق أو تعترض، بقيت صامتة، شعرت بأنني أحدق نفسي، أنهيت الكلام، وفرغت شحنة الطاقة التي كانت لدي.
أخبرت أمي بما حدث، ظلت هي أيضًا صامتة، لم تجبني بأي شيء.
أمن الصعب عليهما تهوين الأمر عليّ بقليل من الكلام؟!
خلدت إلى النوم دون أن أتناول طعامي، بكيت حتى غفت عيناي، لكن عقلي لم يتوقف عن التفكر راودتني الكوابيس والأحلام المزعجة،
غيث، أين أنت؟ أحتاجك بشدة.
بعد مرور أسبوع باسم لم يتصل خلاله أبدًا، وجدت اسمه على شاشة هاتفي الذي كان يرن.
أجبته بصوت ممتعض: "نعم باسم، ما الأمر؟"
– "أفكرتِ بالأمر الذي اقترحته عليكِ؟"
– "باسم، انس هذا الموضوع تمامًا، إن فتحت الحديث في هذا الأمر مجددًا سيحدث شيء لن يعجبك".
فكرت في إخبار ضرغام لكنني تراجعت، قلت إن الأمر سينتهي هنا، ولن يعلم أحد.
بعد أسبوع آخر تكرر نفس الأمر، اضطررت للاتصال بضرغام وإخباره بما يريده باسم بعد أن أنهيت المكالمة،
دخلت غرفتي وجلست على حافة سريري أحاول أن أهدأ، دق عليَ الباب ودخل.
– "أريد أن أخبرك بأمر".
– "علي، أرجوك إن كان خبرًا سيئًا أجله ليوم غد، أنا متعبة".
– "لا، بل سيعجبك كثيرًا".

جلس بجانبي على حافة سريري، وكانت تعتلي شفتاه ابتسامة:
– "أتذكرين صديقي الذي سألتني عنه سابقًا؟"
– "لا أذكر أنني سألتك عن أحد من أصدقائك".
– "بلى، تذكري حين كنت تذهبين لإعداد أوراق الراتب التقاعدي الخاص بغيث، وحين عدتِ وجدتيه في غرفة الاستقبال، كان يلعب مع فريدة".
– "أووه نعم، تذكرته ما به؟!"
"لقد أخبرته بأمرك واتصل بي اليوم، أخبرني أنه سينهي إجراءات الراتب التقاعدي يوم غد، وستبدأين في استلام الراتب التقاعدي في بداية الشهر القادم".
– "أتمزح؟ ماذا عن الرشوة؟!"
– "قال لي أنه قام بدفعها".
– "هذا مبلغ كبير لن أستطيع رده".
– "لا بأس فهو يفعل ذلك طوال الوقت، يساعد كل من يحتاج وحين علم بأمرك لم يتردد".
فرحت جدًا، دمعت عيناي، قفزت من سريري، وسجدت على الأرض شاكرة لربي.
وتركت علي جالسًا على السرير يشاهدني وأنا أقفز فرحًا ويضحك، أسرعت إلى أمي وأخبرتها.
كان علي قادم خلفي نظرت إليه أمي وقالت له: "يجب أن ندعوه إلى الطعام ونشكره، أخبره وقل لي متى سيأتي".
لم تتوقف أمي عن الدعاء له، وأنا لم أتوقف عن التفكير فيم سأفعله بدءً من الشهر القادم.
لقد مرت سنة، تخبطت فيها كالسمكة التي لفظها البحر على رمال الشاطئ، ولا تعلم طريق العودة إلى الماء، أو لا تستطيع.
كنت أمضي أيامي في سريري على أمل أن أموت غدًا،

لكنني لم أمت.
جربت العمل وفاجأتني الحياة بوجود ذئاب على هيئة بشر، تعيش معنا في هذا العالم، ما زلت صغيرة على هذه المواقف، لا أعلم هل أنا فعلًا صغيرة؟ أم أنني قد تعودت على الدلال من أبي وغيث، ولم أتحمل المسؤولية يومًا.
بعد شهر كنت أسير في الطريق عائدة إلى بيتي، وأحمل في حقيبتي الراتب التقاعدي، إنه مبلغ ليس بالقليل سيساعدني كثيرًا، في طريقي مررت على عمتي أم غيث، اشتاقت نفسي للبيت الذي عشت فيه مع غيث، حين دخلت المنزل شعرت بأنفاسه حولي، إنه يشبه خالتي كثيرًا.
عانقتها كثيرًا أشتم رائحة غيث فيها كلما عانقتها، جلست معها قليلًا، شربنا الشاي وتحدثنا عن الفتاتين، ثم أخبرتها بأمر الراتب التقاعدي، فرحت كثيرًا وطلبت مني أن أحضر الفتاتين في المرة القادمة فقد اشتاقت إليهما، استأذنت للرحيل فوجدتها تضع في حقيبتي مظروفًا مثل الذي اعتادت على وضعه، رفضته بشدة، وأخبرتها أنني لا أحتاجه، لدي من المال ما يكفي، لكنها أصرت عليَّ أن آخذه، فإنه خاص بالفتاتين، ليس له علاقه بأمر المعاش التقاعدي، بعد أن خرجت من المنزل عائدة إلى بيتي وجدت لافتة قد علقت على محلق خاص بأحد المنازل وكتب عليها "للإيجار".
الملحق عبارة عن بيت صغير يتبع البيت الأساسي يفصل بينهما حديقة صغيرة وسور قصير، ويحتوي على غرفتين للنوم وغرفة استقبال للضيوف، مطبخ صغير وحمام أصغر، أعتقد أنه سيفي بالغرض، فكرت كثيرًا ووجدته مناسبًا، إنه قريب من بيت عمتي وبيت أبي وأمي، وهناك مدرسة قريبة كي تلتحق بها فريدة.
على طاولة الغداء قررت أن أخبر أبي وأمي بأنني سوف أستأجر

هذا الملحق، رفض أبي في البداية، لكن أمي أقنعته بعد ذلك.
أما عمر فقد ذهب معي ليتفق مع صاحب الملحق على مبلغ الإيجار والمدة، في اليوم التالي ذهبت إلى بيت عمتي أم غيث فتحت غرفتنا أنا وغيث، لم أدخلها منذ أن رحلت.
تعلقت عنياي على السرير وذكرياتي أنا وغيث، تذكرت حين حملني آخر مرة، ووضعني على السرير حين أخبرته بأنني حامل، وسادته لا زالت تحمل عطره، أنفاسه، تمددت على السرير ونظرت إلى وسادته.
ماذا سيحدث إن أغمضت عيني الآن وفتحتها لأجده بجانبي يبتسم لي، ويأخذ رأسي بيديه؛ ليضعه على صدره، وأغفو قليلًا، صدقوني لن ينهار الكون لن تنطفئ الشمس ولن تجف البحار.
لكن هذا لن يحدث، أفقت من أحلامي على صوت عمر وهو يطرق الباب، فتحت الباب له ووجد عينيّ مغرورقتين بالدموع، أردت أن أتحدث لكن الصوت لا يخرج من حنجرتي، إن حاولت أكثر لن يخرج كلام بل صياح وبكاء استجمعت قواي قليلًا، وجففت دموعي وأخبرت عمر أن يساعدني في نقل السرير والخزانة وباقي الأثاث الموجود.
في نهايه الأسبوع كنت قد بدأت الاستقرار في منزلي الصغير، فريدة التحقت بالمدرسة، بالصف الأول الابتدائي، وأنا عدت للعمل في إعداد الطعام وبيعه، أريد أن أجمع المال، فالراتب التقاعدي ينتهي جميعه في دفع الإيجار والمصروفات للبيت والفتاتين، ومن جهة أخرى الأمر يسليني؛ كي لا أشعر بالفراغ، وأمضي النهار بالعمل قدر طاقتي.
أول يوم للمدرسة كان كالكابوس والحلم الجميل في نفس الوقت، لطالما حلمت مع غيث ماذا سنفعل في هذا اليوم، أما الآن فأنا أقف بمفردي معها أحمل ليلى الصغيرة، ويدي الأخرى ممسكة

بيد فريدة، بعد أن اطمأننت عليها عدت إلى البيت أنا وليلى، أنهيت إعداد الطعام وترتيب المنزل، وضعت صور غيث في كل زاوية من المنزل، وبجانب سرير الفتاتين، سأحكي عنك دائمًا، سأخبرهما كم كنت رائعًا وحنونًا، سأجعلهما تشعران بوجودك دائمًا، لا تقلق لن أنساك أبدًا.
أنت غيث قلبي وسقياه!

****

شعرت بالخوف ليلًا، المنزل الجديد الذي استأجرته أمي لنا مختلف، لا يوجد خالي عمر أو علي، ولا جدي وجدتي، ولا أعمامي.
أنا وأختي ليلى وأمي فقط.
أمي وضعت لنا سريرين في الغرفة المجاورة لغرفتها،
شعرت بالخوف، أخذت وسادتي الصغيرة وذهبت نحو غرفة أمي،
كانت تتدلى من السقف،
رقبتها مربوطة بحبل،
بينما نافذة الغرفة مفتوحة والهواء بارد،
خزانة الملابس كانت مفتوحة ومبعثرة،
لامست قدمها كانت باردة جدًا.
– "أمي ماذا تفعلين فوق،
ماما أجيبيني،
ماما،
ماذا حدث؟!"

فصلة

للنشر والتوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail :- Fasla. Pub@Gmail. com

Facebook. Com/Fasla. Pub